فصل تمهيدي

المدخل إلى الوثائق ـــ دراسة وتعريف

للتاريخ الأندلسي مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي ، ذلك ان الأندلس هي الفردوس المفقود بالنسبة للمسلمين ، وبلغت حضارة الإسلام في تلـــك البقعة من الأرض درجة عالية جداً من التطور والسمو ، وكانت الأندلس ، مع صقلية ، البوابة الرئيسية التي انتقل عبرها الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى اوربا ، وكانت من أكبر العوامل في إيقاظ أوربا ونقلها من العصور الوسطى الى العصور الحديثة. وبالنسبة للمسلمين فإن التاريخ الأندلسي دليل حي على حيوية الإسلام وعظمته وقدرته على العطاء غير المحدود ، وعلى نزعته الإنسانية العالمية التي تتجاوز الحدود من أجل العقيدة ونشرها ، ونشر الحب والحق والعدل بين أعداد متزايدة من بني البشر . وإن مأساة إنهيار الحكم والوجود الاسلامي في الأندلس يثير في نفوسنا حتى الآن أسى عميقاً على ما أصاب ذلك القطر من آلام وانفصال عن العالم الاسلامي ، وأسىً أعمق على مـا أصاب المسلمين من اضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب ، والذي يزيد في ألمنا نحن هو الموقف المناقض لموقف الاسلام في الأندلس الذي تمثل في محاولة جادة لاستئصال الاسلام كدين وكحضارة من شبه الجزيرة الإيبرية ، واستئصال المسلمين كأفراد وكمجتمع له شخصيته المتميزة وكيانه في تلك البقعة من الأرض . وإن تسامح الاسلام العظيم في تلـك البقعة قوبل بأشد وأعنف

موجات الاضطهاد والتعصب من قبل الاسبان . وإن الموازنة بين حال إسبانيا الاسلامية إبان ازدهار الحكم الاسلامي فيها ، وحالها بعد إخراج المسلمين منها يكشف عن الهوة السحيقة التي انحدرت إليها إسبانيا ، فكرياً وسياسياً وحضارياً ، وذلك بعد أقل من قرنين من إنهاء حكم المسلمين فيها . وإن تدهور إسبانيا هـذا يعزى بالدرجة الأولى إلى الحـكم المتعصب الأعمى الذي استهدف القضاء على كل آثار المسلمين في شبه الجزيرة الايبرية . وقد نجح الإسبان المتعصبون في ذلك ، ولكن اسبانيا دفعت ثمناً رهيباً لهذا النجاح تمثل في تدهور أحوال إسبانيا وتقهقرها إلى الوراء في كل المجالات — بعد فترة من الازدهار الموقت السطحي — هذا التدهور الذي ظل مرافقاً لهـا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وإن الكلام عن التاريخ الإسلامي في الأندلس يقودنا ، بطبيعة الحال ، للكلام عن الشمال الأفريقي .

ولقد ارتبط مصير إسبانيا الإسلامية بمصير شمالي إفريقية ، وبخـاصة المغرب الأقصى ، كما يسمى أيضاً ، مراكش ، إرتباطاً عضوياً مصيرياً . فلم يكن من الممكن أن يفـكر المسلمون بتحرير الأندلس قبل تحرير شمالي افريقية بـكامله . فلما تم لهم تحرير شمالي افريقية تحريراً تاماً شاملاً نهائياً بدأوا يتطلعون لتحرير الأندلس وجعلها دار إسلام ، وإن دواعي تحرير الأندلس هي دواعي تحرير غيرها من الأقطار التي حررها الإسلام ، يضاف إليها دافع استراتيجي هام ، ذلك أن مضيق جبل طارق الفاصل بين المغرب الأقصى والأندلس ليس حاجزاً لا يمكن اجتيازه ، وقد أثبتت الأحداث والأيام صحة نظرية المسلمين في الدفاع عن شمالي أفريقية ، ذلك أن المنطقة التي يمكن أن يأتي الخطر منها إلى شمالي إفريقية ، وبخاصـــة المغرب الأقصى ، هي الأندلس ، ولذلك فأفضل خطة لحماية هذه المنطقة والدفاع عنها هو احتلال المنطقة التي

يتوقع قدوم الخطر منها، وقد انتبه لهذه الحقيقة سكان قرطاجة القدماء، الذين احتلوا قسماً من إسبانيا لأغراض دفاعية، إلى جانب الأغراض الأخرى. كما وأن الأحداث أثبتت أن سقوط الأندلس بيد الإسبان كان خطراً ماحقاً هدد المغرب الأقصى بخاصة، والشمال الافريقي بعامة، وظل هذا الخطر يتزايد حتى القرن التاسع عشر والقرن العشرين عندما تمكنت الدولتان المستعمرتان فرنسا وإسبانيا من احتلال تونس والجزائر ومراكش والصحراء المغربية، ولم يتم تحرر هذه الأقطار من الاستعمارين إلا مؤخراً وبعد حروب أشبه بالملاحم.

هذا التلازم العضوي المصيري بين الأندلس والمغرب الأقصى نتج عنه وحدة التاريخ بينها، وإن الجهود المستميتة التي بذلها بشكل خاص سكان المغرب الأقصى في نصرة إخوانهم مسلمي الأندلس كانت السبب الرئيسي في اطالة بقاء المسلمين في الجزيرة هذه الفترة الطويلة، والواقع بذل سكان شمالي إفريقية جهوداً رائعة جبارة في نصرة إخوانهم الأندلسيين بدافع الأخوة الدينية أولاً وبدافع المصلحة المشتركة ثانياً، ولذلك لايمكن فهم تاريخ الأندلس دون فهم تاريخ شمالي أفريقية والمغرب الأقصى على الخصوص، ذلك أننا نجد أحداث التاريخ الأندلسي منعكسة كل الانعكاس في تاريخ الشمال الافريقي، والعكس أيضاً صحيح كل الصحة فكل قوة أحرزتها الأندلس كانت قوة للمغرب، وكل تقدم أحرزه المغرب نجد صداه في الأندلس بارزاً كل البروز. وكل نكسة حصلت هنا أو هناك خلفت آثاراً ملموسة في الجانب الآخر. ولذلك سنبحث هنا بايجاز كل مايتعلق بتاريخ المنطقة ككل حسب ماتوحي به الوثائق المتوفرة دون تمييز.

أدوار التاريخ الأندلسي :

لسنا من أنصار تقسيم المجرى التاريخي الانساني الى أدوار ، كما صرحنا بذلك في عدد من كتبنا السابقة ، ولكن هناك أحداثاً معينة بارزة في تاريخ كل شعب وكل قطر ، تحمل سمات خاصة وتركت آثاراً خاصة يحسن أخذها بعين الاعتبار . ذلك لأن المجرى التاريخي عبارة عن جدول رقراق مستمر يتعرض للغزارة أحياناً وللقلة أحياناً اخرى حتى يكاد يصل إلى درجة الجفاف .

ولذلك عند تقسيم هذا الجدول التاريخي الى مراحل ، يجب الانتباه إلى جميع المؤثرات والقوى التي أثرت في ذلك الجدول ، سلباً وإيجاباً . ويجب ألا يغيب عن البال أن مثل هذا التقسيم اصطناعي هدفه تسهيل البحث والدرس وأن العوامل المؤثرة في التاريخ متداخلة متراكبة ، ومن الصعب فصلها عن بعضها ، وأن كثيراً من الشخصيات والأحداث والظروف تلعب دوراً ما في سير التاريخ .

بعد هذا الاحتياط الذي لابد منه نذكر أن التاريخ الأندلسي ـ ونستعمل هذا الاصطلاح هنا للدلالة على تاريخ الأندلس في عهد المسلمين منذ ضمها إلى جسم البلاد الاسلامية حتى سقوط آخر معقل من معاقلها بيد الاسبان ، يضاف الى ذلك تاريخ شمالي إفريقية ، وبخاصة المغرب الأقصى في نفس الفترة ـ يقسم إلى أدوار بارزة حسب المؤثرات والأحداث .

١ ـ الدور الأول زمن بني أمية ، ويمتد هذا الدور من تاريخ تحرير الشمال الافريقي والأندلسي حتى سنة ١٣٨ هـ .

٢ ـ الدور الأموي الذي بدأ بتأسيس دولة أموية منفصلة عن جسم الدولة الاسلامية بعد سقوط الأمويين وحلول العباسيين محلهم بعد سنة ١٣٢ هـ. وقد تم تأسيس الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨ هـ وافتتح العهد بعبد الرحمن الداخل .

كما وأنه تأسست بعد فترة بسيطة دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وأسسها إدريس الأول العلوي وانفصلت عن جسم الدولة العباسية ودخلت في صراع مع الأمويين حتى تمكن الحكم المستنصر من القضاء عليها .

وفي زمن هارون الرشيد تأسست دولة الأغالبة التي أسسها ابراهيم بن الأغلب ولعبت دوراً مهماً جداً في نشر الاسلام في صقلية وجنوبي ايطاليا وظلت في الوجود حتى قضى عليها الفاطميون لما أسسوا دولتهم في تونس .

كذلك نبعت الدولة الفاطمية في المغرب الأدنى أو تونس وتأسست سنة ٢٩٥ هـ على يد أبي عبد الله الشيعي وحاولت التوسع غرباً وشرقاً حتى تمكن أحد خلفائها المعز لدين الله من احتلال مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

ويقسم هذا الدور ، في الأندلس ، الى قسمين : الأول عهد الأمراء الأمويين الذي يمتد حتى سنة ٣١٦ هـ . والثاني عهد الخلفاء الأمويين الذى افتتحه عبدالرحمن الناصر سنة ٣١٦هـ عندما أعلن نفسه خليفة واستمر حتى سنة ٤٢٢هـ.

٣ ـ عهد ملوك الطوائف الذى بدأ سنه ٤٢٢ هـ وانتهى بحدود سنة ٤٨٦ هـ ، وذلك عندما سقطت الخلافة الأموية وتقسمت الأندلس الى عدد كبير من الدويلات الهزيلة أخذت اسم دول الطوائف .

٤ ـ عهد المرابطين الذى بـدأ سنة ٤٥٣ هـ في المغرب الأوسط ثم شمل المغرب الأقصى والأندلس واستمر حتى منتصف القرن السادس الهجري ، وهو العهد الذي ضم الأندلس ومراكش والجزائر تحت حكم مركزي واحد مركزه المغرب الأقصى .

٥ ـ عهد الموحدين الذي قام على أنقاض عهد المرابطين واستمر حتى منتصف القرن السابع الهجري وشمل الأندلس والمغرب الأقصـــى والمغرب الأوسط .

٦ ـ مملكة غرناطة وهي قسم ضئيل من الأندلس بقي تحت حكم إسلامي بعد سقوط القسم الأكبر من الأندلس بيد الاسبان وظلت هذه المملكة في الحياة حتى سنة ٨٩٧ هـ عندما احتلها الاسبان .

٧ ـ العهد المريني في المغرب الأقصى والعهد الحفصي في المغرب الأدني .

ونعود فنذكر بأن هذا التقسيم اصطناعي وأن لاحدود بين عهد وعهد وأن كثيراً من العهود تمتد جذورها في عهود سابقة ، وتستمر تأثيراتها في عهود لاحقة .

مصادر التاريخ والوثائق الأندلسية :

هناك غزارة وتنوع في مصادر التاريخ الأندلسي . وقد وجد كتاب ومؤلفون تخصصوا في التاريخ الأندلسي وشمالي أفريقية إما بشكل عام أو حسب عصر من العصور . أما الوثائق الأصلية فقد وجد عدد قليل منها ، ولكن ليس في خزائن المسلمين ، وإنما في بعض الكنائس والأديرة الإسبانية ، ذلك أن الجهل والتعزق الذي ران على المسلمين حتى مطالع العصور الحديثة جعل من الصعب جداً ، إن لم يكن من المستحيل ، حفظ مثل هذه المواد . ويحتاج الأمر إلى بحث عميق وشامل ومضني في مختلف المظان للكشف عن مثل هذه الوثائق في أرجاء العالم العربي وبخاصة في المغرب الأقصى ، على حين أن التعصب المسيحي الإسباني الذي رافق عملية إنهاء حكم المسلمين في الأندلس وتلاها في فترة طويلة مسؤول عن زوال القسم الأكبر لتراث العرب الفكري المخطوط في شبه الجزيرة الإيبرية .

هذا ، ويستمد المؤرخ والوثقي ، بشكل عام ، معلوماته عن الأندلس وشمالي إفريقية ، من مصادر ثلاثة :

١ ـ المصادر التاريخية الإسلامية العامة التي تقص حوادث المنطقة على اعتبارها إحدى مناطق العالم الاسلامي ، وأحداثها أحـــداث قسم من العالم الاسلامي . وهذا النوع لايصرف إلا اهتماماً ضئيلاً إلى المنطقـة ، إذ إن اهتمام المؤرخين المسلمين ، ولاسيما سكان سورية والعراق وماوراءهما كان موجهاً إلى مركز الخلافة العباسية ، ولذلك فالمعلومات التي تقدمهـا هذه المصادر معلومات سطحية جزئية لاتنقع غلة ولاتبل صدى . فالطبري العظيم الذي يروي أدق التفاصيل في تاريخه عن أحداث العراق والقسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية لايذكر إلا لمحة خاطفة قصيرة عن معركة بلاط الشهداء واستشهاد عبد الرحمن الغافقي . وعلى الرغم من أننا نجـد اهتماماً أكبر بأحداث المنطقةلدىالمؤرخين المتأخرين أمثال ابن الأثير وابن كثير ، إلا أن الصورة بشكل عام تظل قريبة مما كانت عليه في السابق .

٢ ــ المصادر الاسلامية المتخصصة التي تخصصت في قص سيرة وتاريخ المنطقة أو في سرد تاريخ قطر من أقطار المنطقة أو سلالة من السلالات أو حركة من الحركات . ولعل كتاب المقري العظيم **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب** من أشمل الكتب التي تقص سيرة المسلمين في الأندلس من تاريخ فتحها حتى بعد إخراجهم منها : إذ يقص المؤلف أحداث مايقارب الثمان مئة سنة . وقد اعتمد المؤلف على كتب سابقة في تأليف كتابه ، وهو يذكر مصادره ، وبعضها معروف . كما وأنه معجب كل الاعجاب بالوزير الأندلسي الغرناطي البشير لسان الدين بن الخطيب ، فخصص حيزاً كبيراً من كتابه لدراسة وسرد أعمال وحياة هذا الوزير . وقد رسم المقري في كتابه هـــذا للأندلس صورة خلابة رائعة ، وصورها فردوساً مفقوداً وأبرز عظمتهـا ودورها الحضاري العظيم الذي قامت به . ويهتم في كتابه بالأدب والشعر

والعمران ، والفن وبكل القيم الانسانية ، ولايجعل النواحي السياسية تطغى على النواحي الحضارية ، بل العكس هو الصحيح ، ويترجم للبارزين في كل فن ، ويوضح توضيحاً تاماً الصلة العضوية بين الأندلس والمغرب بحيث يكاد يلمس القارىء لمس اليد الدور الخطير الذي لعبه المغرب الأقصى في الدفاع عن الأندلس ونصرتها . كما وأن المؤلف يورد عدداً لابأس به من الوثائق فائقة الأهمية والتي تلقي ضوءاً على تاريخ الأندلس وعلاقتها بشمالي أفريقية . وعلى الرغم من أن الكتاب ألف بعد خروج المسلمين من الأندلس بأكثر من سبعين عاماً إلا أن ذلك لايقلل من أهميته لصدق المؤلف وحيويته وأصالته واعتماده على المصادر الأصلية بحيث يمكن اعتباره بسهولة مصدراً رئيسياً ، وهو مطبوع ومحقق وله عدة طبعات وقام بتحقيقه عدد من المحققين ، كما قام بدراسته عدد من الدارسين .

وأن ابن خلدون في كتابه الشهير : **العبر** ... قد خصص حيزاً جيداً لتاريخ الأندلس وشمالي افريقية باعتباره من أبناء المنطقة ، ولكن الملاحظ أن معالجته للتاريخ الأندلسي لاتمتاز بشيء ذي سمة مميزة ، بل هو عادي في معالجته تاريخ تلك المنطقة من العالم الاسلامي . وإنما اكتسب كتابه أهميته بسبب مقدمته التي وضعها لعلم التاريخ ، ثم من سرده لتاريخ البربر في شمالي افريقية والأندلس وماقاموا به من أحداث وما أسسوه من دول ، فهو ، بهذا الاعتبار ، مصدر لحياة البربر وأعمالهم ودولهم في شمالي إفريقية . وإذا عرفنا أن البربر لعبوا دوراً فائق الأهمية في تاريخ إسبانية الاسلامية ـ سلباً وإيجاباً ـ أمكننا تقدير أهمية تاريخ ابن خلدون من هذه الزاوية . أما الوثائق التي يوردها فهي قليلة بل نادرة ، إلى جانب معالجته لموضوعاته معالجة تقليدية ليس فيها تلك الأصالة التي يتمنى المرء لو يراها لديه .

وبمناسبة الكلام عن ابن الخطيب الذي كان سياسياً لامعاً وكاتباً من أكبر كتاب إسبانيا الاسلامية فإننا نقول إن هذا السياسي الداهية كان مؤلفاً خصب الانتاج متعدد الجوانب ألف في كثير من الموضوعات ومن جملتها التاريخ والتراجم . وقد ألف كتاباً أسماه **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام** . وقد خصصه للعالم الاسلامي ، ولكن تركيزه على الأندلس وشمالي إفريقية . ولايزال قسم من هذا الكتاب مخطوطاً على حين نشر ليفي بروفنسال القسم المتعلق بتاريخ الأندلس تحت إسم : **تاريخ اسبانيا الاسلامية** . وهو تاريخ جيد يبحث في الأمراء والحكام والخلفاء الذين تعاقبوا على حكم مختلف مناطق الأندلس حتى عهده (أواسط القرن الثامن الهجري) . كما وأن اثنين من مؤرخي المغرب الأقصى هما العبادي والكتاني نشرا القسم المتعلق بشمالي إفريقية من هذا الكتاب تحت عنوان **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط** . وهو يغطي نفس الفترة فيما يتعلق بشمالي افريقية . ويرد في هذا الكتاب وثائق مهمة كل الأهمية تساعد المؤرخ والباحث على إصدار الأحكام بدقة واطمئنان. هذا وإن ابن الخطيب رئيس مدرسة خاصة في أسلوب النثر العربي يمتاز بالسجع واستخدام المحسنات البديعية بشكل مفرط ، ولكن بشكل رشيق وعندما يقص الأحداث القريبة من عهده فهو يقصها بقلم أستاذ متمكن من مادته ونفسه ، ويمكن الاطمئنان الى أحكامه الى حد كبير .

وهناك كتاب هام كل الأهمية ألفه أمير من أمراء ملوك الطوائف هو الأمير عبد الله من آل زيري الذي كان حاكم غرناطة في الفترة التي سبقت ورافقت احتلال المرابطين للأندلس وخلعه المرابطون ونفوه الى الى شمالي افريقية لما احتلوا عاصمته غرناطة . يقص هذا الكتاب أحداث هذه الفترة . وقد سرده مؤلفه بشكل مذكرات شخصية مما دعا ليفي

بروفنسال الى نشره تحت اسم **مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة** . وهو يحمل انطباعاته عن تلك الفترة وماحدث وماجرى له ولغيره على الساحة الأندلسية . أما أسلوبه فعادي واهتمامه بالوثائق قليل ، وهو يسمي كتابه : **التبيان** .

أما الكتاب العظيم في تاريخ الأندلس والذي لايزال قسم كبير منه مخطوطاً ، ولم ينشر منه الا أجزاء ضئيلة فهو كتاب ابن حيان مؤرخ الأندلس العظيم ، الذي ألفه وسماه **المقتبس في أخبار بلد الأندلس** ، وهو كتاب مفصل كل التفصيل موثوق كل الثقة ، وثقي من الطراز الممتاز اذ يحوي عدداً كبيراً جداً من الوثائق الهامة المفردة . وقد نشر قسمان ضئيلان منه أحدهما عن حكم عبد الرحمن الأوسط والثاني عن فترة قصيرة من حكم الحكم المستنصر بالله . وتدل الأقسام التي نشرت على شخصية المؤلف وأسلوبه واهتماماته أحسن دلالة ، فهو شامل في نظرته ، وهو موثوق كل الثقة ، وهو يهتم بكل صغيرة وكبيرة ، ولاسيما فيما يتعلق بالعلاقات السياسية والوفود والحروب وماشاكل . وهو يدعم أقواله بوثائق تثبت مايقول ، الى جانب أنه مفصل كل التفصيل . والأمل كبير أن يتم نشر المخطوط بكامله نشراً علمياً محققاً حتى تتم الفائدة منه .

كذلك هناك كتاب مجهول المؤلف اسمه **أخبار مجموعة في فتح الأندلس** . وعلى الرغم من عدم معرفتنا بشكل يقيني ثابت شخصية المؤلف واسمه ، الا أن المعلومات التي حواها هذا الكتاب معلومات جيدة واسعة موثوقة وتدل على حس تاريخي منتظم .

ولعل أقدم كتاب يقص سيرة فتح الأندلس هو كتاب ابن القوطية المسمى **تاريخ افتتاح الأندلس** ويعتبر هذا الكتاب ، من بعض الوجوه أقدم تاريخ لفتح الأندلس وربما أوثقها .

وهناك كتب مشتركة بين المغرب والأندلس تقص سيرة البلدين معاً . ولعل أهمها الكتب التالية: **المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** لابن عذاري ، وهو كتاب جيد موثوق يقص سيرة وتاريخ البلدين حتى أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس ، وقد حقق أقساماً منه ليفي بروفنسال واكتشف قسماً ضائعاً منه . وقد سد هذا الكتاب ثغرة في الدراسات المغربية والأندلسية ، وهو مهم خاصة من أجل حركة المرابطين وعلاقتها بالأندلس . أما الوثائق الواردة فيه فقليلة . واذا ذكرنا الموحدين الذين ورثوا المرابطين وبنوا دولتهم على أنقاضهم لاحظنا وجود عدد من المصادر الأصلية التي تقص سيرتهم وتاريخهم ، الى جانب تواريخ غيرهم ، كما فعل المراكشي في كتابه : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، اذ يلخص تاريخ المنطقة ويركز على الموحدين لأنه ألف الكتاب في عهد أوائلهم ، ولذلك فهو موثوق فيما يتعلق بالفترة التي يسردها ، ووثائقه ليست كثيرة . كما وأن هناك مصادر تخصصت بالموحدين مثل كتاب **المن بالامامة على المستضعفين** . الذي ألفه ابن صاحب الصلاة عن الحركة الموحدية وقيامها زمن المهدي وعبد المؤمن وأبي يعقوب . وهو كتاب مفصل ينظر الى التاريخ الموحدي من وجهة نظر دينية . وهو مليء بالوثائق المهمة بشكل رسائل بين ملوك الموحدين وولاتهم في الأندلس حول مختلف المسائل . ولسوء الحظ لم يصل الى يدنا الا الجزء الثاني من هذا الكتاب الهام .

وهناك كتاب ، أو بالأحرى ، قسم من كتاب خاص بالموحدين ألفه ابن القطان ، اسمه **كتاب نظم الجمان** ، وهو يقص سيرة عدد من سنوات حياة المهدي مؤسس حركة الموحدين ، وفيه وثائق مهمة . ويرد في هذا المجال كتاب ألفه ابن الأبار اسمه **الحلة السيراء** الذي يقص سيرة تلك الفترة في كل من الأندلس وشمالي أفريقية ، وهو كتاب تاريخي كما هو

كتاب تراجم ويحوي عدداً من الوثائق المهمة . وختاماً لابد أن نذكر أن هناك عدداً لا بأس به من الوثائق المتعلقة بالأندلس والشمال الافريقي أتى من كتب الثقافة العامة والوثائق العامة التي ذكرناها سابقاً في كتبنا وأهمها كتاب **صبح الأعشى في صناعة الانشا** للقلقشندي ، وكتاب النويري : **نهاية الأرب في فنون الأدب** . فقد حوى الأول بشكل خاص عدداً من المراسلات بين ملوك مصر من المماليك وبين ملوك غرناطة وملوك الشمال الإفريقي ، وهي مهمة كل الأهمية في كشف طبيعة العلاقات بين الطرفين خلال تلك الفترة من الزمن . ولقد فصلنا القول في هذا النوع من الكتب في مؤلفاتنا السابقة ، فلايفيد أن نعيد ماسبق أن ذكرناه ، ولكن نقول إن هذه الوثائق التي وردت في **صبح الأعشى** بخاصة جيدة وموثوقة ، على الرغم من عدد من الأخطاء التي وردت فيها .

٣ ـ أما النوع الثالث من المصادر التاريخية الهامة فهو كتب التراجم التي تقص سير الشخصيات البارزة في المنطقة ككل أو في قطر معين أو في عصر معين ، أو تقص سيرة فئة من الناس كالقضاة مثلاً . هذا ولابد من القول أن أغلب كتب التاريخ التي ذكرناها تخصص حيزاً من محتوياتها للترجمة لمشاهير الرجال في العصر الذي تقص سيرته بشكل وفيات أو أخبار أو غير ذلك . وقد ذكرنا سابقاً كتاب **الحلة السيراء** لابن الأبار وقلنا إنه كتاب تاريخ كما وأنه كتاب تراجم .

ولابد من القول إن قسماً من المعلومات عن الأندلس والشمال الافريقي ترد في كتب التراجم العامة التي ألفها المشارقة ، على الرغم من ضآلتها وعدم شمولها وسطحيتها . ولكن هناك استثناء واحداً من هذا الحكم يتمثل في كتاب **وفيات الأعيان** ... لابن خلكان الذي حوى أخباراً جيدة جداً وربما فريدة في بابها عن الأندلس والمغرب الأقصى ، وتراجمه

لعدد من مشاهير تلك المنطقة كابن تاشفين والمنصور الموحـــدي مصدر رئيسي لايستغني عنه دارس لدراسة حياة وأعصر هؤلاء المشاهير ، بجانب ايراده عدداً من الوثائق الهامة .

وقد ألف الأندلسيون أنفسهم عدداً مهماً من كتب التراجـم مـدى العصور ، ولكن بعضها مفقود والبعض الآخر نادر إما مخطوط أو مطبوع ولكن المؤلف لم يتمكن من الاطلاع عليه . من أمثـال هـذه الكتب كتاب ابن بشكوال المسمى باسم **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس** وعلمائهم ومحدثيهم . وهو كتاب جيد موثوق يترجم للمشاهير في الأندلس في كل نواحي الحياة . وقد أكمل هذا الكتاب عدد من المؤلفين بعـــد موت صاحبه وجعلوا له ذيولاً كابن الأبار الذي ألف كتاباً أسماه **التكملة لكتاب الصلة** سار فيه على منواله وأكمل التراجم حتى عهده ؟ وكأبي جعفر الذي أكمل عمل ابن الأبار فأصدر كتاباً أسماه **كتاب صلة الصلة** . وقد ألف أحمد ابن يحيى الضبي كتاباً جيداً في تراجم رجال الأندلس سماه **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** حوى عدداً من الوثائق الهامة النادرة . وحذا حذوه الحميدي في كتابه **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** ولعـل أشهر من ترجم لرجالات الأندلس ، عدا من ذكرنا ، ثلاثة مؤلفين هم : ابن بسام صاحب كتـاب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، والفتـح بن خاقان في كتابيه : **قلائد العقيان في محاسن الأعيان** ، وكتاب : **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** ، ولسان الدين بن الخطيب في كتابه : **الإحاطة في أخبار غرناطة** . ولسوء حظ المؤلف لم يتمكن من الاطلاع ، من عهد قريب ، على كتب المؤلفين الأوليين على الرغم من أنها مطبوعة . وقد ألف ابن بسام كتابه **الذخيرة** على منوال كتاب الثعالبي **يتيمة الدهر** ، ليثبت للمشارقة بشكل خاص تفوق أهل الأندلس في كل

الميادين . والكتاب ذو صبغة أدبية فنية . وكذلك الحال في كتب الفتح ابن خاقان المملوءة سجعاً ثقيلاً يصل إلى درجة الاملال . أما الكتاب الذي ألفه لسان الدين بن الخطيب فقد طبع الجزء الأول منه وحققه الأستاذ عنان ، وهو كتاب جيد يقص تاريخ غرناطة من الفتح الاسلامي حتى عهد المؤلف ويقص سيرة أشهر رجالاتها . وهو مؤرخ جيد ومطلع وكان في مركز يمكنه من الاطلاع على الوثائق الأصلية ولذلك حوى كتابه هذا كثيراً من الأخبار النادرة وعدداً لابأس به من الوثائق المهمة .

ولابد من القول ان قسماً مهماً من المعلومات عن الأندلس وشمالي إفريقية في تلك الفترة موجودة في كتب الرحالة وكتب الجغرافيا كقاموس البكري ومؤلفات الادريسي والحلل الموشية والروض المعطار وغيرها ، وبعضها يحوي عدداً لابأس به من الوثائق .

كذلك لابد من التنبيه إلى أن مصادر معلوماتنا عن المرحلة الأخيرة من حياة غرناطة وسقوطها ومارافق ذلك من مفاوضات ، ومعاهدة التسليم ، وذيولها موجودة في مصادر إسبانية نصرانية بشكل مفصل إذ ان المصادر العربية المعاصرة لاتعطي كثيراً من التفاصيل عن هذا الحادث المؤلم والخطب الجلل .

هذا بالنسبة لمصادر تاريخ الأندلس والمغرب في تلك الفترة . أما الدراسات الحديثة التي قام بها مؤلفون محدثون عن تلك الفترة بالذات فكثيرة وغزيرة وبعضها جيد . وقد استند أغلب المؤلفين إلى المصادر التي ذكرناها آنفاً . ونحب أن نذكر أن الأوربيين سبقونا إلى دراسة التاريخ الأندلسي دراسة علمية ، ولكن من وجهة نظرهم . فقد درس الاسبانيون في القرن الماضي التاريخ الإسلامي في الأندلس ، واعتمدوا على مصادر لاتينية ومصادر عربية ، ولكن أتت مشوهة نتيجة للتعصب القومي المسيحي

الذي صبغ تلك الدراسات وأعطى صورة شوهاء عن تلك الفترة من تاريخنا الحضاري . ولعل المؤرخ الهولندي الشهير دوزي هو أول أوربي استطاع أن يأتي بدراسة مفصلة واسعة للإسلام في الأندلس ، معتمداً على المصادر الأولية العربية واللاتينية والقشتالية ، وذلك في كتابه المسمى **تاريخ مسلمي إسبانيا** ، وقد نقل الكتاب إلى عدد من اللغات الأوربية ونقل قسماً منه إلى العربية حسن حبشي . وعلى الرغم من ادعاء المؤلف الحياد ، إلا أنه لم يتمكن من أن يتخلص من عواطفه الشخصية ، ولارواسب دينه وعقليته الإستعمارية ، نلمس ذلك واضحاً في ثنايا ماكتب ، وأصبح كتابه قديماً الآن وظهرت دراسات أحدث . ولعل أحدث وأهم من درس تاريخ الأندلس بتفصيل وافٍ شافٍ ، وبشيء من الموضوعية هو الباحث الفرنسي اليهودي المتخصص بتاريخ المسلمين في الأندلس وشمالي إفريقية ، فقد حقق ونشر عدداً من كتب التراث الأندلسي وألف عدداً من الكتب عن الأندلس نقل أهمها إلى اللغة العربية السيد عبد العزيز سالم . وعلى الرغم من اعتبار الباحثين أبحاث بروفنسال جيدة عميقة رضية ، وعلى الرغم من ادعائه الحياد العلمي ومحاولته الجادة أن يكون كذلك ، إلا أنه لم ينجح في ذلك إلا بمقدار ضئيل .

ولقد ألفت كتب كثيرة عن تاريخ الأندلس والمغرب ألفها عدد من المؤرخين العرب المعاصرين ، فقد اهتم المغاربة في الآونة الأخيرة بتاريخ بلدهم إبان تلك الحقبة وأصدروا عدداً من الكتب عنها . كما وأن عدداً من المؤرخين تخصصوا في دراسة التاريخ الأندلسي ، ويأتي على رأس هؤلاء الأستاذ محمد عبد الله عنان الذي ألف أفضل ماكتب في العربية عن تاريخ الأندلس من تاريخ افتتاحها حتى سقوطها ، بل وبعد

سقوطها . وقد اطلع الأستاذ عنان على أغلب كتب التراث مطبوعة ومخطوطة ، واطلع على ما ألف في الانكليزية وغيرها من اللغات في هذا الموضوع ، وارتحل في بلاد المغرب وإسبانيا وإيطاليا في سبيل جمع المادة ، فأتت كتبه ثمرة جيدة جداً لجهود فائقة بذلت في سبيل جلاء هذه الحقبة من تاريخنا الاسلامي . وقد زود كتبه بعدد مهم جداً من الوثائق البالغة الأهمية ، وذكر ، في أغلب الأحيان ، المصادر التي استقى منها هذه الوثائق ، ولذلك أتت كتبه تحفاً فنية تاريخية وثقية وسدت فراغاً في حقل الدراسات الاسلامية الأندلسية . ولقد بدأ الاستاذ حسين مؤنس بداية جيدة في حقل الدراسات الأندلسية وذلك في كتابه **فجر الأندلس** ، ولكن هذا الكتاب خلا أو كاد من الوثائق ، ولم يتبعه بغيره لنتمكن من الحكم له أو عليه وتقويمه تقويماً موضوعياً .

هذا وأن الباحث السوري الكبير الاسلامي المرحوم الأمير شكيب أرسلان اهتم بالأندلس إهتماماً فائقاً وارتحل إليها وألف عنها كتاباً لا بأس به اعتمد في تأليفه على مصادر أصلية وعلى مؤلفات فرنسية ، ولكنه اهتم بالآثار الباقية ووصفها أكثر من اهتمامه بالتاريخ وتقصيه ، وله فضل نشر وثائق بالغة الأهمية أرسلها له أحد أصدقائه من المغرب ، وهي رسائل أرسلها ملوك غرناطة الى ملوك أراغون ، وهي تكشف عن مدى وطبيعة العلاقات السياسية التي سادت بين الطرفين إبان تلك الفترة .

ولابد لنا في الأخير ، من أن نذكر بما سبق أن ذكرناه في كتبنا السابقة ، من أننا نعرض الوثائق هنا على مسؤولية أصحابها ، وأننا نقدم نصوصها وأماكن وجودها للباحثين ، آملين أن يتكرموا بدراستها ونقدها وتمحيصها وبيان صدقها من زيفها . ذلك أن مهمتنا هنا أن نقدم مادة التاريخ التي هي الوثائق مصنفة مرتبة ليصار إلى دراستها من قبل الدارسين

ولقد اتبعنا في عرض الوثائق الطريقة التي اتبعناها سابقاً في عرض الوثائق في كتبنا السابقة ، فنأتي بذكر الوثيقة تحت اسم الملك أو الأمير الحاكم أو الخليفة الذي صدرت هذه الوثيقة في عهده ، ونصدرها بنبذة توضح مضمونها ونوعها ، ما إذا كانت رسالة أم عهداً أم خطبة ... ونذكر الأطراف المعينة بها ، والمناسبة ونوعها وتاريخها إن أمكن ذلك . ثم بعد ذلك نذكر المصدر الذي أخذنا منه نص الوثيقة واسم المؤلف والجزء والصفحات ، وذلك بعد أن نكون أوردنا نص الوثيقة ، وفي حال ورود نفس الوثيقة في أكثر من مصدر ، فإننا جهدنا لاقتباس النص الذي نعتقد أنه أكمل وأوضح من غيره ، وأشرنا في أسفل الصفحة إلى أماكن وجود النصوص المشابهة لنصنا المذكور أعلاه مع ذكر أسماء المصادر وأسماء مؤلفيها وأماكن وجودها . كذلك حاولنا توضيح معاني بعض الكلمات أو الأسماء أو التواريخ التي ترد في الوثائق ، كما حاولنا تصحيح بعض الوقائع والتواريخ والأسماء . واتبعنا في تأليفنا التقسيم المألوف المعروف لأدوار التاريخ الأندلسي الذي ذكرناه سابقاً ، وأعطينا لكل حاكم اسمه ولقبه وتاريخ توليه وتاريخ تركه الحكم بالهجري والميلادي ، ومهدنا للوثائق بفصل تمهيدي هو مدخل وتعريف بها ، وهو هذا الفصل الذي نكتبه الآن .

بعد أن انتهينا مما ذكرناه سابقاً لابد من إبداء بعض الملاحظات عن مختلف عصور الأندلس كما تتراءى لنا من خلال الوثائق العائدة لكل عصر من عصور تاريخ الأندلس .

أ ـ العصر الأول : زمن بني أمية الذي ينتهي سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م

من الملاحظ أن فتح المسلمين لشمالي إفريقية بكامله استغرق وقتاً

طويلاً ، إذ بدأ منذ عهد الخليفة الراشدي عثمان رضي الله عنه ، وانتهى زمن عبد الملك بن مروان ، في أواخره ، على حين أن فتح الأندلس لم يستغرق إلا وقتاً قصيراً كل القصر بالموازنة مع الزمن الذي احتاجه تحرير شمالي إفريقية هذا ، وقد بدأ عمرو بن العاص رحمه الله يفكر في تحرير شمالي إفريقية بعد تحريره مصر ، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يسمح له بـــذلك ، فلما أتى عثمان سمح بمتابعة المشروع وحرر المسلمون مايسمى ليبيا اليوم وتونس التي كانت تسمى إفريقية ، وفي زمن معاوية رحمه الله تمكن عقبة بن نافع من احتلال شمالي إفريقية بكامله حتى وردت خيوله الأطلسي وأسس مدينة القيروان ، ولكن الفتح لم يستقر ، وحـدثت ثورات كثيرة واستشهد عقبة رحمه الله ، واضطر المسلمون لاخلاء القسم الأكبر مما حرروه سابقاً من المنطقة . وصرف الأمويون اهتمامهم عن المنطقة بسبب الاضطرابات التي حدثت عقب وفاة يزيد بن معاوية وما رافقها من صراع على الخلافة ، فلما استقرت الأوضاع وصفا الجو لعبد الملك قرر إعادة تلك المنطقة من جديد لحظيرة الاسلام ، ولذلك عهد لأخيه ووالية على مصر عبد العزيز أن يهتم بالموضوع ، فعين قائداً عاماً للجيش المحارب في المنطقة هو موسى بن نصير ، وأثبت عبد العزيز أنه مصيب في هذا الإختيار ، وأثبت موسى أنه أكفأ من تسند إليه قيادة الجيوش ، وتمكن موسى ، بعد جهود قاسية وحروب مضنية أن يعيد المنطقة دار إسلام وأن يثبت بها دعائم العروبـة والاسلام تثبيتاً نهائياً إن شاء الله .

ولم يكتف موسى بما أنجز وإنما قرر اجتياز المضيق الفاصل بين أوربا وإفريقية والمعروف باسم جبل طارق ، واحتلال المنطقة المعروفه الآن باسم اسبانيا والبرتغال والتي عرفها المسلمون باسم الأنـــدلس ، وذلك لدواعي كثيرة ، ولعل أولها رغبة موسى رحمه الله في نشر الاسلام وإيصال تعاليمه

العظيمة إلى نفوس بشر لم يسمعوا بـه من قبل وإنقاذ أنفسهم وأرواحهم وتحريرهم في الدنيا والآخرة . كذلك اتبع موسى المبدأ العسكري القائل ان أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم ، والحرب الوقائية .

ذلك أن حماية شمالي إفريقية حماية جيدة يقتضي احتلال شبه جزيرة إيبريا ، لأن الشقة الضيقة من البحر الفاصلة بين المنطقتين لاتشكل حاجزاً طبيعياً لايمكن اجتيازه ـ بمفاهيم وإمكانات تلك الأيام في النقل البحري بخاصة ـ هذا إلى جانب اغراض أخرى أقل أهمية بكثير مما سبق ذكره .

لقد كانت عملية احتلال الأندلس عملية سهلة أو نزهة عسكرية كما يقال ، وذلك بسبب كفاءة القواد وحذرهم ، وشجاعة المسلمين المحاربين وتشبعهم بالمثل العليا الاسلامية ، وبسبب ضعف الحكم الاسباني آنذاك وتخلخل المجتمع الاسباني وتفككه ، ولذلك لم تمض فترة طويلة حتى تمكن المسلمون من ضم أغلب شبه الجزيرة الايبرية إلى حكمهم وأن يجعلوها دار إسلام ، وبدأت عملية استيطان إسلامية واسعة ، وبعد فترة بدأ التفاعل الحضاري وانتقال الحضارة الاسلامية إلى أوربا بشكل نشط كل النشاط .

هذا ويتألف سكان المغرب العربي بكامله ، من البربر ، الذين يتشابهون في كثير من عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم مع العرب ، بقدر ما يختلفون عنهم . وبعد انضمام المنطقة إلى دنيا الاسلام بدأ سيل القبائل العربية في التدفق إلى المنطقة وبدأت عملية الاستيطان ، لقد قاوم البربر ، أول الأمر ، هذه الهجرة العربية وثاروا بزعامة الكاهنة وقاوموا الاسلام بشدة حتى جعلوا المسلمين ينسحبون من قسم كبير من المنطقة . ولكن بعد فترة ، عاد المسلمون إلى المنطقة وبدأوا يتفاعلون مع البربر الذين اعتنقوا الاسلام وأصبحوا من أكبر رعاته والمدافعين عنه ، وشكلوا نسبة كبيرة من الجيش الاسلامي الذي

حرر الأندلس ، حتى أن معاون القائد العام كان بربرياً ، وأعني بذلك طارق ابن زياد .

ولما فتحت الأندلس انتقل إليها العرب والبربر واستقروا فيها جنباً إلى جنب ، ولكن ، لسوء الحظ ، لم يشكل الطرفان جبهة واحدة متماسكة ، فقد انقسم سكان إسبانيا الاسلامية إلى اقسام اربعة : العرب ، البربر ، السكان الأصليين الذين اهتدوا الإسلام ، المستعربين ، وهم النصارى الاسبان الذين ظلوا على دينهم وعاشوا تحت ظل الحكم الاسلامي . وكان المفروض أن يشكل الأقسام الثلاثة الأولى جبهة متماسكة متحدة ، بموجب تعاليم الدين الاسلامي العظيم وبحسب مصلحتهم الذاتية ، ولكن ذلك لم يحدث ، واختلف القوم أشد اختلاف وتحاربوا وأدى ذلك إلى تمزق الأندلس ، وكان ذلك من أكبر أسباب ضعف الأندلس وسقوطها فيما بعد . كما وأن العرب أنفسهم لم يكونوا جبهة واحدة ، فقد حملوا معهم إلى شبه الجزيرة خلافاتهم وانقساماتهم وعصبياتهم بين **قيس** ويمن وشمال وجنوب . كما وأن البربر أنفسهم لم يكونوا جبهة متراصة ، وبدأت عملية التقسم والصراع تعمل عملها في المجتمع الأندلسي منذ أواخر العصر الأموي ، وظلت مستمرة حتى أواخر أيام بقاء المسلمين في شبه الجزيرة .

ولقد ظهر في تلك المنطقة المضطربة عدد من الشخصيات العظيمة التي تمكنت أن تسيطر على الوضع وأن تخمد جذوات الفتنة والاضطراب ، دون أن تتمكن من استئصال عواملها ، من أمثال : عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر ، ويوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن الموحدي ، والمنصور الموحدي وغيرهم ، ولكن قوى الانقسام والتمزق كانت أقوى من الشخصيات ، أضف إلى ذلك أن بقايا الاسبان ، وضعوا لهم هدفاً

محدداً ثابتاً وهو استرجاع بلادهم من المسلمين وبدأت عملية الاسترجاع هذه منذ زمن مبكر ، ووضعت أوربا كلها ثقلها المادي والبشري والعسكري والاقتصادي إلى جانب الاسبان ، وشن القوم حرباً صليبية حقيقية ضد الاسلام والمسلمين في الأندلس كدين وكدولة ومجتمع وافراد ، همهم استئصال الدين الاسلامي والمسلمين استئصالاً تاماً ، وقد بدأ ذلك من قبل عهد شارلمان واستمر حتى بعد إخراج المسلمين من الأندلس ، على حين لم يقدم الشرق الاسلامي إلى الأندلس مساعدة تذكر ، واضطلع الأندلسيون ، يساعدهم سكان المغرب الأوسط والأقصى بمهمة مقاومة الهجمة الأوربية الشرسة المستمرة على بلادهم . ولما لم يكن هناك تكافؤ بين قوى الطرفين ، لذلك وصل الصراع إلى نهايته المحتومة ، واضطر آخر ملوك بني نصر أبو عبد الله الصغير إلى تسليم مفاتيح الحمراء إلى فرناندو وايزابيلا والنزوح إلى المغرب .

وإن الدراسة لشخصية موسى بن نصير تدل على أنه شخص كفء متواضع حذر فيه كل الصفات الضرورية للقائد الناجح ، فهو يعتبر نفسه كأحد أفراد جيشه ، وهو يخطىء ويصيب ، وهو مستعد لتقبل النقد ، وهو مستعد لتلبية وقضاء حاجات من لهم حاجات من أفراد جيشه : وإنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها ، ومن رأى مني سيئة فينكرها فاني أخطىء كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون . . . ومن كان له حاجة فليرفعها إلينا ، وله علينا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله[1] .

---

(١) ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ـ الإمامة والسياسة ـ تحقيق محمد محمود الرافعي . القاهرة ، مطبعة النيل ، ١٩٠٤ م . ٢/٩٨ — ٩٩ .

كذلك تدل خطبته الثانية التي خاطب بها جيشه لما استلم قيادته ، وهو الجيش الذي انهزم أمام الكاهنة وتمركز في افريقية على نظرة عسكرية ثاقبة وحزم وعزم شديدين . فقد كان الوضع صعباً في إفريقية بسبب قرب العدو ، فلما استلم موسى القيادة وأدرك الوضع الصعب ونظر إلى جبال إفريقية وماحولها جمع جنده وشرح لهم خطته ، وأخبرهم أنه سيسمى أول ما يسمى لاحتلال هذه الجبال وشعابها ، لأن العدو يأتي منها ، ثم تطرق إلى شرح الصفات الواجب توافرها في رجل الحرب والتي اعتزم اتباعها : وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم ، لينجو ويسلم ، دون أن يكلم أو يكلم ، ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلاً في حزمه جازماً في عزمه ، مستزيداً في علمه ، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه ، متحنكاً بتجاربه ، ليس بالمتجانن إقحاماً ولا بالمتخاذل إحجاماً ، وإن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً ، وان نكب أظهر جلادة وصبراً . راجياً من الله حسن العاقبة ... »[1] وبعد : فإن كل من كان قبلي كان يعمد الى العدو الأقصى ويترك منه الأدنى ، فينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ، وايم الله لأأريم هذه البقاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين [2] .

ولقد تمكن موسى بإخلاصه وشجاعته وذكائه وقيادته الحكيمة الحذرة أن يحقق ما أمله فيه عبد العزيز بن مروان لما عينه والياً على شمالي إفريقية

---

(١) نفس المصدر ٢/٩٩ — ١٠٠ .

(٢) نفس المصدر .

بكامله ، فأعاد المنطقة إلى دينا الاسلام ، وقضى على الفتن ووردت خيوله المحيط الأطلسي من جديد وأرسل يبشر عبد العزيز بما فتح الله على يديه الذي سر بذلك كل السرور وأرسل يخبر الخليفة بما فتح الله على يدي موسى فما كان من الخليفة إلا أن أعلن شكره وسروره ، وتعبيراً عن امتنانه من موسى رد عليه مبلغ مائة ألف درهم كان قد أغرمه إياها سابقاً : إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف التي أغرمها لك فخذها من قبلك من الأخماس [1] .

صفا شمالي إفريقية بكامله لحكم المسلمين ، فبدأ موسى بن نصير يتطلع إلى فتح الأندلس [2] . وكان الوليد بن عبد الملك قد أصبح خليفة في دمشق مكان والده عبد الملك ، فأرسل موسى يستشيره بالأمر ويهون عليه العملية ، وأن البحر الفاصل بين الأندلس والمغرب الأقصى إنما هو خليج يبين ماوراءه ، ولكن الوليد أصر على ضرورة الحذر ، وأنه لابد من اختبار هذا الخليج بالسرايا قبل اقتحامه [3] .

ولقد تم الأمر كما رسم الوليد وخطط للعملية بعد درسها واختبار البلاد المزمع فتحها ، واتفق المسلمون مع عناصر إسبانية وأدركوا ضعف الحاكم وتفسخ المجتمع الإسباني ، ولذلك أقدموا ، وكانت النتيجة فتحاً ليست كالفتوح ، ولكنه الحشر [4] ، كما ورد في رسالة موسى بن نصير

---

(١) نفس المصدر ٢/ — ١٠٩ .

(٢) الأندلس كلمة أطلقها المسلمون على ما احتلوه من شبه جزيرة إيبريا ، وهي تشويه وتعريب لكلمة ***Vandal*** وهي اسم شعب من القوط احتل الأندلس في القرن السادس الميلادي وانتقل إلى شمالي إفريقية وأعطى المنطقة اسمه .

(٣) المقري ، أحمد بن محمد التلمساني ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . . . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٤٩م ١/٢٣٧ .

(٤) ابن قتيبة المصدر المذكور آنفاً . ٢/١١٣ .

إلى الوليد بن عبد الملك مبشراً بالفتح الجليل .

ولقد استدعى الوليد موسى بن نصير إلى دمشق حتى يراه ويكافئه مع أبطاله على ماحقق من انتصار وأنجز من فتح تفتح أبواب السماء له فلبى الطلب بعد أن ترك ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس مكانه ، وأخذ السير إلى دمشق ، وفي تلك الأثناء مرض الخليفة ، فأرسل أخوه وولي عهده سليمان يطلب من موسى أن يبطيء في سيره لعل الخليفة يموت ويحل سليمان محله في الخلافة فينسب فضل هذه الفتوح إلى سليمان ، ولكن موسى لم يلب طلب سليمان ، وأسرع خطاه حتى وافى الوليد وهو حي ، فكان ذلك مما زاد في غضب سليمان عليه .

ولقد عامل سليمان بن عبد الملك ـ لما أصبح خليفة ـ قواد أخيه العظام ، موسى بن نصير ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، معاملة سيئة ، وعزا بعض المؤرخين ذلك إلى كونهم رفعوا اسم أخيه عالياً وحققوا كثيراً من الانجازات التي كان يتمنى لو تحققت في عهده هو . ولكن هذا التعليل ناقص مبتور ، ولعل السبب الحقيقي في حقده على هؤلاء القواد يعود بالدرجة الأولى لموافقتهم أخاه الوليد على تأخير سليمان عن ولاية العهد ونصب ابن الوليد ولياً للعهد مكانه . وهو مشروع هم به الوليد ، ولكن القدر عاجله قبل إتمامه ووافقه عليه قواده ، ولم يكن بإمكانهم إلا فعل ذلك . كما وأن سياسة سليمان القبلية عامل آخر من عوامل حقده على هؤلاء القواد ، فقد كان ضلع سليمان مع آل المهلب ، وهم من الأزد ـ أي اليمن ـ على حين أن أغلب هؤلاء القواد كانوا من قيس ، ولذلك فعل بهم مافعل . ولقد صب حقده وغضبه على موسى بن نصير ولم يرع له شيخوخته ولا بلاءه وخدمته للإسلام والأمويين ودبر على ابنه عبد العزيز مؤامرة أودت بحياته ونقل رأسه إلى دمشق حيث أراه لأبيه الشيخ الذي تحلد كل التجلد ودافع عن ابنه أعظم دفاع ... فوالله

ماكان بالحياة شحيحاً ولامن الموت هائباً ، وليعز على عبد الملك ، وعبد العزيز ، والوليد أن يصرعوه هذا المصرع ، ويفعلوا به ما أراك تفعل[1].. وأخيراً توسط بعض الوسطاء بين الخليفة وبين موسى وعقد بين الطرفين عقد تراض يدفع موسى بموجبه للخليفة مبلغاً ضخماً من المال لقاء الكف عنه وعن أولاده[2] . وعلى الرغم من أن كثيراً من الشكوك والتساؤلات أثيرت حول هذا العقد وحول مصير موسى وأولاده ، إلا أن الرأي مجمع على أن سليمان أساء كل الإساءة إلى موسى وأولاده ، وأنه عاملهم بما لايستحقونه لقاء خدماتهم للإسلام وللبيت الأموي ، مهما تكن أخطاؤهم ونقيصاتهم .

ولقد استمر تيار الفتح بعد ذهاب موسى وعودته إلى دمشق ، وقاد ابنه عبد العزيز هذه الفتوح وضم مملكة أربولة في شمالي إسبانيا إلى ديار الاسلام وضرب على صاحبها تدمير الجزية وعقد معه عقداً بهذا الشأن[3] .

ولقد تابع عدد من ولاة الأندلس الغزو في بلاد الفرنجة [فرنسا الحالية] ، ومن أشهرهم عبد الرحمن الغافقي الذي عينه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي والي شمالي إفريقية والياً على الأندلس ، فغزا فرنسا وغنم مغانم كثيرة جداً ، ومن جملتها رجل من ذهب مفضضة بالدر والياقوت فكسرها ووزعها بين المحاربين ، فساء ذلك عبيدة كل السوء وأرسل يهدد عبد الرحمن ويتوعده لأنه لم يرسلها له خالصة من دون أفراد

---

(١) نفس المصدر . ٢/١٥٣-١٥٤ .

(٢) نفس المصدر . ٢/١٤٦-١٤٨ .

(٣) الضبي ، أحمد بن يحيى ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس . دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ م . ص ٢٤٧

الجيش فأجابه عبد الرحمن بلهجة المؤمن الواثق من ربه : إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً (٢) .

ولقد ذر قرن العصبية بين العرب في الأندلس من عهد هشام بن عبد الملك ، وانقسم القوم إلى قيس ويمن ، وكانت تعاود الطرفين ذكريات مرج راهط والثارات والدماء والأحقاد ، حتى أن هذا الوضع المضطرب الذي كان سائداً في الأندلس كان أحد العوامل التي ساعدت عبد الرحمن الداخل في تأسيس ملكه هناك .

فقد اعتقل عبيدة بن عبد الرحمن والي هشام الجديد على شمالي إفريقية عمال بشر بن صفوان الوالي القديم المعزول ، لأن الأول قيسي والثاني يمني ، ومن جملة المعتقلين أبو الخطار الكلبي ، فتحيل في إرسال رسالة إلى هشام بن عبد الملك يخبره بما حدث ، وهي رسالة شعرية تتهم الأمويين أنهم عمداً سلطوا القيسيين على اليمنيين الذين نصروهم في معركة مرج راهط الشهيرة ، وأنهم نسوا ذلك وأن الأيام بين الطرفين ، وعندئذ سيدفع الأمويون ثمن أخذهم جانب القيسيين ضد اليمنيين (٣) .

ولذلك اشتعل الصراع في شمالي إفريقية والأندلس بين قيس ويمن ، وكان البربر مستاءين من الأمويين وسياستهم القاضية بتفضيل العرب على غيرهم ، ولم يحسن أواخر الأمويين السياسة وضعفوا عن قيادة دفة السفينة ، فنشب في الأندلس صراع رهيب مرير بين العرب والبربر ، وبين العرب أنفسهم بين قيس ويمن ، وفي هذه الظروف الحالكة السواد سقطت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية .

---

(٢) نفس المصدر ـ ٣٦٦ .

(٣) دوزي ، ينهارد ـ تاريخ مسلمي إسبانيا : الجزء الأول الحروب الأهلية . تعريب حسن حبشي . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٣ م ص ١٣٧ .

ب ـ عهد أمراء بني أمية في الأندلس ١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/٧٥٦ ـ ١٠٣١ م .

١ ـ عبد الرحمن الداخل ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/٧٥٦ ـ ٧٨٨ م .

تمكن أبو مسلم الخراساني ، بدعايته الذكية وتنظيمه الدقيق وذكائه واستغلاله نواحي الضعف في الدولة الأموية ، أن ينهي حكم الأمويين وأن يحل محلهم العباسيين . وقد افتتح الخليفة العباسي السفاح الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ وافتتح معه عهداً من أظلم عهود التاريخ قتلاً وحقداً وانتقاماً وإراقة للدماء ، فقد قتل العباسيون الأمويين أينما ثقفوهم ونبشوا قبور خلفائهم ، ولم ينجُ من هذا المصير إلا قبر عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وتتبع العباسيون الأمويين بحقدهم وانتقامهم ولم يفوا بعهد ولم يوفروا شيخاً ولا طفلاً ، وكانت هذه الوحشية في الانتقام دافعاً قوياً لعدد من الأشداء للهرب إلى أقصى الأرض ، وكان ممن هرب من هذه المجزرة عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك الذي تمكن بشجاعته وصبره وذكائه وشخصيته الفذة من الهرب من بلاد الشام إلى المغرب الأقصى وهناك استغل الظروف المواتية التي كانت سائدة آنذاك ، وتألف اليمنيين وضمهم إلى جانبه وحارب معهم ومع من انضم إليه من أنصار الأمويين والبربر أخواله حاكم الأندلس يوسف الفهري وهزمه وتمكن من تأسيس مملكة استمرت في الوجود قرابة ثلاثة قرون . ولقد حاول عبد الرحمن ، الذي لقب بالداخل فيما بعد ، لأنه أول من دخل الأندلس من الأمويين سيداً وحاكماً ، أن يتصالح مع يوسف الفهري ، قبل أن تبدأ الحرب بينهما ، وقد جنح الفهري إلى الصلح معه وإلى تبني عبد الرحمن وإحياء ملك بني أمية في الأندلس ، ولكن الصميل الحاكم الفعلي للأندلس خاف من مثل هذا التحالف ، وخاف من طموح عبد الرحمن وجبروته ،

فنكل بوعده إياه في نصرته وقال للرسولين اللذين أرسلهما عبد الرحمن يستنجزانه وعده إياه بالنصرة : تأملت الأمر فوجدته صعب المرام ، فبارك الله لكما في رأيكما وقولكما فإن أحب غير السلطان فله عندي أن يواسيه يوسف ويزوجه ويحبوه ، انطلقا راشدين [1] .

ولقد حاول يوسف الفهري ثني عبد الرحمن عن عزمه فلم يفلح ، واصطدم الطرفان في معركة المصارة الحاسمة سنة ١٣٨ هـ ، وهنا نجد عبد الرحمن الداخل قائداً فذاً وبطلاً شجاعاً عرف كيف يقود رجاله في هذه المعركة الحاسمة ، فخاطبهم بقوله : هذا يوم هو أس مابني عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لاتشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون [2] .

وقد صبر عبد الرحمن وأتباعه هذه الساعة فربحوا حكم الأندلس ، وانتصر عبد الرحمن وأعاد تأسيس ملك أسلافه هناك .

وقد تكشف عبد الرحمن عن حاكم قوى كل القوة يفهم أصول الحكم ويعد للحادثات مايلائمها ، ويتوقع التوقعات . فقد منع أصحابه من الاثخان في أنصار الفهري بعد انتصاره عليهم : لاتستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشد عداوة منهم [3] .

وقد أثبت عبد الرحمن الداخل أنه صنو للمنصور العباسي ولشارلمان اللذين حاولا مقارعته ولكنهما لم ينالا منه .

---

(١) ابن عذاري المراكشي . البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب . تحقيق ج. ش. كولون و أ. ليفي بروفنسال . بيروت ، دار الثقافة ٢/٤٤ .

(٢) الشعراوي ، أحمد ابراهيم . الأمويون أمراء الاندلس الأول . القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٩ م . ص ٧٥ .

(٣) المقري المصدر المذكور آنفاً .

وبالمناسبة فإن الأندلس لم تخضع قط للدولة العباسية إذ انفصلت عنها منذ قيامها ، وحاول المنصور جاهداً استرجاعها والقضاء على الحكم الأموي فيها ولكنه عجز ، وهو الذي لقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش . وكان عبد الرحمن ذا ثقة بنفسه واعتداد وشعور كبير بتفوقه وقيمة وسمو وعظمة ما أنجزه من إعادة ملك بني أمية في الأندلس . ويبدو هذا الاعتداد في رسالة جوابية رد بها على شخص قرشي وفد عليه وكتب إليه يستعظم حقه عليه في النسب ويستقل حظه منه بالمطمع ، فوقع له على ظهر كتابه عدداً من أبيات الشعر أكثر ماتكون دلالة على ما ذكرناه .

شتان من قام ذا امتعاض ... منتضي الشفرتين نصلاً
فجاب قفراً وشق بحراً ... مساميساً لجة ومحلاً
فشاد مجداً وبز ملكاً ... ومنبراً للخطاب فصلاً
ثم دعا أهله جميعاً ... حيث انتأوا ، أن هلم أهلاً
فجاء هذا طريد جوع ... شريد سيف أباد قتلاً
ألم يكن حق ذا على ذا ... أعظم من منعم ومولى [1]

ولقد حارب عبد الرحمن الأعداء الإسبان في الشمال وهزمهم حتى اضطروا إلى عقد صلح معه مدته خمس سنين لقاء جزية ثقيلة من الذهب والفضة والخيل والسلاح والدروع [2] .

---

(١) ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي . كتاب الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م . ١/٣٩-٤٠

(٢) عنان ، محمد عبد الله . دولة الاسلام في الاندلس . طبعة رابعة منقحة مزيدة القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦٩ م . ج١ ، ق١-١٩٩ .

كما كان أديباً ذواقة ، وتدل توقيعاته وأشعاره والأقوال المنسوبة إليه على أدب رفيع ونفس طموحة حساسة واعتداد بالنفس . وقد توفي عبد الرحمن سنة ١٧٢ هـ بعد أن ترك دولة قوية مرهوبة الجانب في الخارج ، موطدة الحكم في الداخل ، وورث أبناءه حكمها من بعده .

وليس لدينا سوى وثيقة واحدة من عهد ابنه هشام الذي حكم بين سنتي ١٧٢ - ١٨٠ هـ هي وصيته لابنه الحكم الربضي التي أوصاه بها قبيل وفاته . وتدل هذه الوصية على نفس طيبة مؤمنة نزاعة للسلم والخير ، محبة للشعب . فقد أوصاه بتقوى الله تعالى وأن يذكر دائماً أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه عمن يشاء ، لذلك يقضي واجب الشكر لله النظر لعباده بالرحمة والعدل وعدم التمييز بين الناس حسب غناهم أو فقرهم ، ويطلب إليه أن يعاقب الظالم ، ولوكان وزيراً أو حاكماً ، كما يطلب إليه أن يراقب جيشه ، ويضبط جنده ، وأن يجعلهم حماة الدولة لامخربيها[1] .

٢ - الحكم الربضي ١٨٠ - ٢٠٦ هـ/٧٩٦ - ٨٢٢ م .

الحكم الربضي شخصية متناقضة فيه قوة جده عبد الرحمن وحزمه وجبروته ، وفيه رقة أبيه هشام وشيء من خصاله ، وقد امتاز عهده بثورة شعبية رهيبة قام بها الفقهاء والعامة ضده شخصياً ، وكان مركزها ربض قرطبة (أي ضاحيتها) . وكانت حركة رهيبة عارمة كادت تودي بالحكم وحكمه ، ولكنه عالجها بكل هدوء أعصاب وبكل برود ، ولكن بشدة دونها شدة أي شخص آخر . وتمكن من القضاء على الحركة ، واضطر زعماؤها إلى الخروج ، بمن بقي من أتباعهم ، من الأندلس وركبوا البحر المتوسط بحثاً عن ملجأ بقيادة أبي حفص أحد زعمائهم ، فاستقروا

---

(١) الشعراوي ، المصدر المذكور آنفاً ، ٢٠٤ - ٢٠٥ .

في الاسكندرية ، ولكن عبد الله بن طاهر أخرجهم منها فذهبوا إلى كريت (أقريطش) وانتزعوها من الدولة البيزنطية واستقروا فيها وظلوا حكامها قرابة قرن ونصف حتى استرجعها البيزنطيون منهم . وقد وزع الأمير الحكم ، الذي استمد لقبه الربضي من هذه الواقعة الرهيبة ، منشوراً على الولاة يقص عليهم ظروف الثورة وما حدث وكيف قمعها . وهو يقلل من شأن المشتركين فيها كل التقليل ، فهو يصفهم بأنهم فسقة أهل قرطبة وسفلتهم وأذنبتهم [1] ... كما ويذكر أنهم ثاروا بقصد خلعه عن غير مكروه سيرة ولاقبيح أثر ولانكر حادثة كان منافيهم [2] ... ثم يذكر أنه لما ظفر بهم قتلهم قتلاً ذريعاً ، ولكنه أمسك عن نهب الأموال وسبي الذرية والعيال وعن قتل من لاذنب له من أهل البراءة والاعتزال [3] .

كذلك حدثت محاولة في سرقسطة قام بها جماعة من البربر بقصد الاستقلال بذلك الثغر وطرد والي الحكم منه ، ولكن الوالي بمساعدة عدد من زعماء العرب والبربر ، تمكن من القضاء على هذه الحركة واعتقال زعيمها وإبقاء الثغر في طاعة الحكم . وقد دارت عدد من المراسلات بين الحكم وبين الفرقاء المعنيين حول هذه الحادثة يظهر فيها الحكم سروره وامتنانه بهذه النتيجة [4] .

ولما اقتربت وفاة الحكم أوصى ابنه عبد الرحمن بوصية جيدة هي دستور للحكم ، وهي أن يكون حكمه خليطاً بين الشدة والرأفة ، وبين

---

(١) عنان ، المصدر المذكور آنفاً ، جـ١ ، ق١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) الخشني ، أبو عبد الله محمد بن حارث . قضاة قرطبة . القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م . ص ٤٢ - ٤٣

الحزم واللين ، وأن يعرف أين وكيف يضع هذا ومتى وكيف يضع ذاك . ويبدو أنه كان معجباً بابنه عبد الرحمن ، فإنـــه بعدما أوصاه وذكر له أنه وطد له الأمور قال له : فقد هان علي الموت إذ خلفني مثلك[1]

٣ ــ عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/٨٢٢ ـ ٨٥٧ م .

نصل الآن إلى عصر الزهو الأول في عهد الحكم الأموى للأندلس ، ذلك أن عبد الرحمن الثاني أو الأوسط كما يلقب كان حاكماً صالحاً واستفاد من توطيد المملكة الذي حققه أبوه له فجنى ثمر ذلك استقراراً في الداخل ودفاعاً عن الحدود ، وقد حدثت في عهده حادثتان مهمتان في تاريخ الأندلس ، ذلك أن النورمانديين الذين يعرفون أيضاً باسم الفايكينغ **Vikings** هاجموا شواطىء الأندلس بعنف وقتلوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل فتصدى لهم عبد الرحمن وتمكن من ردهم عن سواحل الأندلس ، وبني لذلك الأساطيل . وهؤلاء النورمنديون هم الذين يسميهم المؤرخون المسلمون « الأرذمانيون » .

كما وأن السمعة الطيبة التي تمتع بها عبد الرحمن وحكمه وقوة الدولة في عهده جعلت امبراطور بيزنطة ثيوفلس الذي عاصر المأمـون والمعتصم في الشرق يحاول كسب وده ، فأرسل له الوفود والرسائل وقد جمع بين الطرفين العداء للعباسيين وعلى الرغم من أن عبد الرحمن لم يكن في وضع يمكنه من مساعدة الامبراطور البيزنطي ضد خصومه العباسيين ، إلا أنه حاول هذه المحاولة لاعتقاده أنها إن لم تنجح فليس فيها خسارة .

وعلى الرغم من أننا لانمتلك إلا رسالة عبد الرحمن الجوابية ليثوفلس إلا أنها وحدها تكفي لنعرف مضمون رسالة الامبراطور له ، فقد لخص عبد الرحمن رسالة ثيوفلس له ورد على كل بند من بنودها بما يناسب المقام .

---

(١) الشمراوي . المصدر المذكور آنفاً ، ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

فقد ذكر الامبراطور رغبته الأكيدة في إقامة علاقات ود وصداقة بينه وبين عبد الرحمن ، وإن ذلك امتداداً للصداقة التي كانت موجودة بين أسلاف الطرفين إبان الدولة الأموية . ثم يطلب من عبد الرحمن أن يرسل اليه رسلاً من عنده توكيداً لهذه المودة .

ثم ينتقل حاكم بيزنطة ليطرق موضوعاً عاطفياً حساساً لدى الأمويين هو ذكر جدهم مروان وقرابتهم منه ، وأسف الامبراطور لما حل به وبأهل بيته ، وبنفس الوقت يطعن على أبي جعفر المنصور لأنه كان المحرك والسبب الرئيسي لما حل بالأمويين ، ويسميه عبد الرحمن باسم الفاجر أبي جعفر تربه الله[1] .

بعد ذلك يتطرق الامبراطور إلى ذكر المأمون والمعتصم وسوء حكمها لرعيتها وانحرافها وشدة وطأتها ، وهنا يسمي عبد الرحمن المأمون والمعتصم باسم أمها احتقاراً لها فسمى المأمون ابن مراجل لأن أمه جارية اسمها مراجل ، والمعتصم باسم ابن ماردة[2] لأن أمه جارية اسمها ماردة . ثم تختتم الرسالة الامبراطورية بذكر أمر أبي حفص أمير الأندلسيين الذين غادروا الأندلس عقب وقعة الربض ولجوئهم إلى الاسكندرية ، ثم تركهم إياها ومهاجمتهم كريت البيزنطية واحتلالهم إياها ، وكيف أن الامبراطور عجز عنهم ويطلب من عبد الرحمن التدخل بينه وبينهم عله يستعيد كريت منهم .

وبعد أن لخص عبد الرحمن رسالة الامبراطور بهذا الشكل ردّ على كل بند من بنودها .

---

(١) طوخان ، ابراهيم علي . المسلمون في أوربا في العصور الوسطى . القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٦ م ص ٢٧٥ – ٢٧٨ .

(٢) نفس المصدر .

فقد ذكر أنه يرغب في مودته كما يرغب الامبراطور في مودته، وأنه يتمسك بذلك إحياء لذكر مودة كانت بين الأسلاف.

كذلك يشكره لأسفه وألمه لما حل بذرية مروان من قتل وتشريد، وانتهاك للمحارم، وينحي باللائمة على أبي جعفر على جرأته على الله وسوء سيرته وظلمه وبطشه.

وعند الحديث عن المأمون والمعتصم يخصها أيضاً بلعناته وتمنياته بقرب زوال ملكها. أما أمر أبي حفص فخارج عن اختصاصه لأنه طرد من الأندلس وانضم إليه السفلة والأوشاب، وقد اضطروا إلى الدخول تحت طاعة ابن ماردة لقربهم من بلده، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولاتصعب عن نكايتهم، ولاتتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك[1].

ثم يعده أنه إذا رد الله سبحانه وتعالى سلطان الأمويين في المشرق إليه فإنه سينظر بعطف في مطالب ثيوفلس بما فيه صلاح الطرفين.

وأخيراً يخبره أنه أدخل رسوله عليه وقربه وحياه وسمع منه، وأن جوابه هذا قد أرسل مع رسولين من رسله[2].

٤ ـ محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ/٨٥٢ ـ ٨٨٦ م.

ثارت الفتنة في الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الأوسط، وعجز الأمراء الذين أتوا بعده عن السيطرة على الوضع الأمني في البلاد، وانتزى الثوار في أماكن كثيرة، ولم يعد للأمير سلطة إلا على قرطبة نفسها وضواحيها، ولعل أخطر هذه الثورات وأشدها ثورة ابن حفصون التي اشتعلت زمناً طويلاً وهددت لأندلس تهديداً حقيقياً.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

هذا وإن السبب في ذلك يكمن أولاً في ضعف الحكم ، ذلك أن الولاة بعد عبد الرحمن كانوا ضعفاء ولذلك استغل الثوار الفرصة وحاولوا تحقيق أغراضهم .

كذلك هناك انقسام أهل الأندلس ، إلى عرب وبربر ومولدين ومستعربين وتضارب مصالحهم ، وهناك أيضاً انقسام العرب إلى قيس ويمن والعصبية بين الطرفين ، وهناك الانتهازيون الذين يريدون تحقيق مآربهم تحت شعارات براقة لاتخدم إلا مصالحهم . وهناك الأعداء الخارجيون الذين بدأوا تحركهم الواسع ضد الأندلس وبدأوا يغذون الثورات والحركات الإنفصالية والنزعات الإقليمية فيها .

فقد بلغ ضعف الأمراء الحكام أن أصبح الثوار يهددونهم بإحراق المدن وإضرامها بالنار إن حاولوا التعرض لهم كما فعل عبد الرحمن الجيليقي لما ثار واعتصم بحصن منت شافر وأرسل إلى الأمير محمد يهدده بإضرام بطليوس بالنار إن وجه حملة ضده[1]. ولقد بلغ من ضعف الحكم المركزي أن أحد الثوار في الشمال تمكن من هزيمة جيش أرسله الأمير محمد لحربه بقيادة وزيره هاشم بن عبد العزيز وأسر الوزير نفسه [2] . وناهيك بهذا الشيء دليلاً على ضعف الحكم والحاكم .

ولقد استغل بعض الثائرين أمثال ابن حفصون سوء إدارة بعض الحكام وحاول استغلال العصبية ، فأذاع في الناس بياناً ذكر الناس فيه بالمظالم السابقة وأنه يريد إنصافهم : طال ماعنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم

---

(١) ابن القوطية . تاريخ افتتاح الاندلس . مجريط ، ١٨٦٧ م ص ١٠٨ – ١٠٩

(٢) ابن حيان . المقتبس من أنباء أهل الاندلس . تحقيق محمود علي مكي . بيروت دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣ م ص ٣٨٩ – ٣٩٢

فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستبعدتكم ، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم [1] .

وقد ظلت الأندلس تتخبط في دياجير هذه الفتن حتى أنقذها الله تعالى بحكم عبد الرحمن الناصر .

٥ ـ عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/٩١٢ ـ ٩٦١ م .

نصل الآن إلى عصر الزهو في تاريخ الأندلس ، ذلك أن حكم عبد الرحمن الناصر قد أزال قسماً كبيراً من المتناقضات في المجتمع الأندلسي وفجر الطاقات الخلاقة لدى هذا الشعب . وهو مثل حي على قدرة بعض بني البشر على القيادة الخلاقة والعطاء وبناء الحضارات . فقد تمكن هذا العبقري أن يعيد توحيد الأندلس تحت قيادته ، وأن يقضي على الثوار جميعاً وأن يعيد توطيد هيبة الحكم وأن يشعر المواطن الثقة بنفسه وقيادته ولما تمكن أن يحقق الأمن والاستقرار ، وهما نعمتان من أجل النعم ، اطمأن الناس إليه وإلى مستقبلهم وتم التفاعل بين الحاكم والمحكوم ، فأدى الأمر إلى تلك المساهمة الحضارية التي ساهمت بها الأندلس في الحضارة الاسلامية تحت حكمه ، وحكم خلفائه من بعده .

كذلك حارب عبد الرحمن الناصر الإسبان في الشمال وكسرهم ورد كيدهم وتمكن من فرض هيبته عليهم حتى أن ملوك الاسبان المتنافسين بدأوا يفدون إلى بلاطه وبلاط ابنه من بعده ، يلتمسون العون ضد بعضهم بعضاً .

ولقد حارب الناصر الأدارسة في المغرب الأقصى ، الذين تحالفوا مع الفاطميين ضده ، وكانت له اليد العليا عليهم .

---

(١) ابن عذاري ، المصدر المذكور آنفاً ٢/١١٤

وفي حقل الدبلوماسية ، فقد وصلت الخلافة الأندلسية في عهـــده إلى ذروة رفيعة عالية جعلت كثيراً من الدول تخطب ودها ، وعلى رأسها الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية الجرمانيـــة المقدسة زمن أوتو الكبير .

كذلك اهتم الناصر بالآداب والعلوم ، وانتشرت في عهـده المدارس والجامعات وجذبت إليها العلماء والطلاب من جميع الأصقاع ، حـتى من أوربا نفسها ، وبلغ من سمعة الناصر وبعد صيته أن بدأ أدباء المشارقـة يفدون عليه كما فعل أبو علي القالي الأديب واللغوي البغدادي الذي وفد على الخليفة واختص بابنه الحكم ولي العهد .

واهتم الناصر بالعمران فشيد الحصون والمدن ووسع جامع قرطبة وعمر مدينة الزهراء التي يقرن اسمها باسمه ، وتدل أوصافها وبقاياها المادية على أنها بناء ضخم رشيق جميل ذو تصميم هندسي رائع وجمال أخاذ وحدائق غنـاء . وكل ذلك دليـل حي على غنى الدولة وحضارتهـا وتقدمهـــا الفني والمادي .

وبالجملة استلم الناصر دولة متهدمة بكل معاني الكلمة ، داخلياً وخارجياً وسلم ابنه من بعده دولة مزدهرة كل الازدهار ، قوية ، داخلياً وخارجياً يهابها الأعداء ويخطب ودها الأصدقاء ، ونافست في عهده قرطبة بغـداد والقسطنطينية ، بل وبزتهما .

ويظهر أن دلائل النجابة كانت لائحة على عبد الرحمن من صغره ، وهذا ما جعل جده يعينه ولياً لعهده على الرغم من وجود أعمام له أكبر منه في العمر ، كما وأن الأسرة الأموية ، وعلى رأسها أعمامه انقادت له بسهولة وبايعته طواعية وتعاونت معه تعاوناً صادقاً . وقد تجلى ذلـك في

الكلمة التي وجهها للناصر ، بعد أن بويع بالإمرة ، عمه أحمد بن عبد الله الذي خاطبه باسم الأسرة الأموية قائلاً : والله لقد اختارك الله على علم الخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا . فاسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة وإلهام الحمد [1] .

ولقد كان الناصر عند حسن الظن به وكان على ثقة تامة بربه وبنفسه وبشعبه فحقق المستحيل . وقد بدأ بالأمور الأكثر أهمية وهي مسألة الثوار . وقد تمكن بمزيج من القوة والدهاء وحسن السياسة الرائعة أن يستنزل أكثرهم من حصونهم وأن يشحن هذه المعاقل برجاله ، وأن يستقدم الثوار إلى مأمنه حيث أمنهم ووفى لهم بما وعدهم به ، كما فعل لما استأمن حفص بن عمر بن حفصون واستلم منه حصن بيشتر ، فقد أمر بهدم الحصن ، وأحضر إليه حفصاً هذا ووفى له بما وعده به ، بل وأنعم عليه وسكن نفاره وأصدر بياناً إلى جميع الولاة يخبرهم بما تم ويطلب إليهم إذاعة ذلك في الناس [2] .

ولقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها ، إذ أقبل الثوار يستأمنون إلى الأمير القوي الذي يفي بما يعد ، والذي لايطلب الاستئمان إلا وهو قادر على الحرب ، فلحق بقية الثوار بشيخهم ابن حفصون ، أمثال محمد بن هاشم في سرقسطة وغيره من الثائرين .

ولما تمكن الناصر من توطيد الأمن في بلده سمت به همته إلى المزيد فتطلع إلى أمر لم يفعله أسلافه من قبل وهو التلقب بلقب أمير المؤمنين . لم تخضع الأندلس قط للعباسيين ، ولكن لم يشأ أمراؤها الأول أن

---

(١) عنان ، المصدر المذكور آنفاً ، ٣٧٤ .

(٢) نفس المصدر ٣٨٧ - ٣٨٨ .

يتلقبوا بلقب أمير المؤمنين لقوة الخلافه العباسية آنذاك ورغبتهم في عدم الاصطدام معها ، وكان أمراء بني أمية يلقبون أبناء الخلائف والأمراء . فلما أتى عبد الرحمن وتمكن أن يعيد للدولة هيبتها ، ولاحظ ضعف الخلافة العباسية وهزال الخلفاء العباسيين ، كما ولاحظ كيف اتخـــذ الخلفاء الفاطميون لقب خليفة ، وقد اعتزم أن يدخل في صراع معهم من أجل المغرب الأقصى ، لذلك فقد قرر أن يتخذ لقب خليفة وأمير المؤمنـين أواخر سنة ٣١٦ هـ ، لأن ذلك أكثر جلباً للهيبة له ، وينص المرسوم الذي أصدره بذلك صراحة على أن اتخاذ هذا اللقب واجب عليه ، وأن ترك هذا الواجب هو ترك لحق أضاعه ، وترك لاسم ثابت أسقطه [١] . كذلك ينص ذلك المرسوم على أن : كل مدعو بهذا الاسم [أي أمـــير المؤمنين] غيرنا منتحل له ودخيل عليه ومتسم بما لا يستحقه [٢] .

وقد أثبتت الأيام والأحداث أن قلائل من الخلفاء هم الذين استحقوا هذا اللقب بمثل الجدارة التي استحقها الناصر لدين الله .

ويدل الخطاب الذي وجهه الناصر إلى قواده وأنصاره وولاته يشرح الظروف التي أدت إلى هزيمتـه في غزوة الخندق سنة ٣٢٧ هـ على نفسية صافية خالية من العقد والزيف الذي يحيل الهزائم إنتصارات وهمية ، فقد قص الحادثة كما وقعت ، وإن يكن قد حاول تخفيف آثارها حتى لاتحدث ردة فعل سيئة لدى الناس . فهو يقص رحلته إلي بلاد الاسبان وحربه إياهم وكيف هزمهم بعد حرب شديدة . وهنا تقص الرسالة بشكل مفصل وأسلوب أدبي بليغ سير المعركة وهجوم الفرسان واستبسال المسلمين في

---

(١) ابن عذاري . المصدر المذكور آنفاً ٢/١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) نفس المصدر .

حربهم ضد الاسبان ، ويذكر أسماء من صرع من زعماء الاسبان ومشاهيرهم وقوادهم ، بعد ذلك يقص كيف سار في بلادهم يدك الحصون ، وينتسف الزروع ، ويقتل الفرسان ، ثم يقص كيف أن جيشه في منصرفه إلى بلاده نصب له الأعداء كميناً قرب خندق عميق وكيف أصيب عدد من أفراد الجيش ، ولكن الله سلم الغالبية ورجع الجيش سالماً إلى مأمنه (١).

ولقد امتازت علاقة الناصر بوزرائه وولاته بالود الخالص ، وكانوا يعرفون رغباته فيتسابقون لتلبيتها ، كما فعل الوزير ابن شهيد عندما أهدى إلى الناصر هديته المشهورة ، فقد أهداه عدداً عظيماً من الحجارة والخشب ومواد البناء لعلمه بغرام الخليفة بالبناء (٢) .

وباعتباره أميراً للمؤمنين فقد رأى أن من واجبه أن يحمي عقائد الناس من الانحرافات الضالة والأفكار المنحرفة ، فأصدر بياناً عاماً شاملاً ضد تعاليم ابن مسيرة التي انتشرت في الأندلس بعد أن زار مؤسسها الشرق وتتلمذ على يد فئات معينة ذات اتجاهات مخالفة ، ففند تعاليمه وحذر من اتباعها وأنذر وأوعد (٣) .

وكما سبق وقلنا آنفاً ، ارتفعت سمعة الأندلس وسمعة خليفتها العظيم ارتفاعاً عظيماً جعل الدول الأجنبية تخطب وده وكان فيمن خطب وده امبراطورا القسطنطينية قسطنطين ورومانوس اللذان أرسلا الوفود لحضرته ومعها الهدايا ، وكان بعض هذه الهدايا كتباً طبية وكتباً في التاريخ الروماني . ولقد حدثت حادثة طريفة أثناء استقبال الناصر لوفد الروم ، ذلك أنه أراد أن يكون

---

(١) عنان . المصدر المذكور آنفاً ، ٧١١ ـ ٧١٤ .
(٢) المقري . المصدر المذكور آنفاً ١/٣٣٦-٣٣٧ .
(٣) عنان . المصدر المذكور آنفاً ٧٠٨ - ٧١٠ .

الاحتفال معبراً ومناسباً لعظمة الدولة والخليفة ، وقد تقرر أن يلقي خطبة الافتتاح أبو علي القالي الوافد من بغداد ، ولقد ساء ذلك الأندلسيين وعلى رأسهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي . فلما انعقد المجلس وقام القالي ليتكلم أصابه البهر وأرتج عليه فلم ينبس ببنت شفة بعد حمد الله والصلاة على نبيه ، فأخذ مكانه حالاً القاضي البلوطي وأكمل الخطبة كأحسن مايكون ، وهي خطبة بليغة تشيد بمناقب الناصر العظيمة وكيف أن الله تعالى جمع به الأندلس ، وأخمد الفتنة وأحل القوة محل الضعف وجعل الناس يرفلون في حلل السعادة . كل ذلك بفضل الناصر وهمته (١).

وقد ختم القاضي خطبته الرائعة هذه التي سرت الخليفة وخلصته من مأزق حرج بأبيات من الشعر فيها تعريض أنه مبخوس الحق في بلده وان الغرباء هم أصحاب الحظوة ، وهذا تعريض صريح بالناصر واعتماده على أبي علي القالي وإطراحه أهل الأندلس وهم أحق من الآخرين :

هذا المقال الذي ما عابه فند ... لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً ماكنت مطرحاً ... لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها ... ماكنت أبقى بأرض مابها أحد (٢)

ولما مات الناصر سلم ابنه وولي عهده الحكم الثاني المستنصر بالله دولة آمنة قوية مزدهرة مهابة الجانب عالية البنيان ونام قرير العين أنه أدى واجبه نحو ربه ودينه ووطنه فاستحق أن يسجل اسمه مع أعظم عظماء الاسلام ومن مؤسسي الحضارة الاسلامية العظيمة .

وعند تقريرنا لشخصية الناصر ولإنجازاته نقول إن شخصيته مزيج

---

(١) المقري . المصدر المذكور آنفاً ١/٣٤٥-٣٤٨ .
(٢) الضبي . المصدر المذكور آنفاً ٤٦٥ .

من شخصية جده الأعلى عبد الملك بن مروان وجده الأدنى عبد الرحمن الداخل ، يضاف إلى ذلك استشراف داخلي ، وأصالة ذاتيـة ، تمكنت من قيادته أفضل قيادة عبر حياته الطويلة وكفاحه الشاق الطويل .

٦ ـ الحكم الثاني المستنصر ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/٩٦١ ـ ٩٦٧ م .

الحكم شخصية محببة إلى النفس ، فهـو شخص رضي الطباع ليس عنده تلك الشدة والصرامة اللتان توفرتا عند والده ، كما وأنه فاقه في حبه للعلم والأدب والكتب ، إلى جانب حزم وعزم مكنانه من أن يقف بوجه الأعداء الخارجين بشكل جيد ،ولقد زرع عبد الرحمن الناصر أفضل زرع فحصد الحكم أجود حصاد ، وكانت حصيلة ذلك الحصاد حضارة سامية باسقة ، وعلوماً سامية ، وآداباً رفيعة ، ومؤلفات قيمة في شتى ميادين العلم ، إلى جانب مدارس كثيرة ، وجامعات راقية ، ومكتبة تعتبر من أعظم مكتبات العالم على مر العصور . فقد كان الحكم ، قبـل كل شيء وفوق كل شيء ، مغرماً بالكتب جمع في قصره مكتبة حافلة نافت على الأربع مئة ألف مجلد وأحسن الاستفادة منها ، وكان له وكلاء يجوبون أرجاء العالم الاسلامي ، بحثاً عن المخطوطات وشرائها وإرسالها إلى الأندلس . وربمـا كان الحكم أعلم حاكم في دينا الإسلام ، ويوصف بالفضل وسعة الصدر والحلم والعلم والذكاء الحاد وبكل الصفات التي يتصف بها أحد بناة الحضارة .

وكان عهـــد الحكم عهد رخاء وهدوء ، لم تتخلله ثورات عنيفة ولا اضطرابات خطـــيرة ، وإنما وجه بالحرب التي كان أبوه بدأها ضد بقايا الأدارسة في المغرب الأقصى ، وهم الحسينيون الذين تحالفوا مع الفاطميين ضد الأمويين في الأندلس ، فأرسل الناصر الحملات ضدهم إلى

وكان على الحكم أن يسير بالحرب ضدهم إلى نهايتها المحتومة ، وهي الظفر وقـــد فعل .

وقد أثبت القائد غالب مولى الحكم أنه قائد جيد وأنه أهل للمهمة التي ندبه لها مولاه للقضاء على حكم الأدارسة في المغرب ، فأرسله الحكم إلى هناك للقضاء على زعيم الأدارسة المتحالف مع العزيز الفاطمي الحسن ابن قنون ، وخوله صلاحيات كبرى وأطلق يده في العمل ، ولم يجعل يداً فوق يده إلا يد الخليفة نفسه . وتدل رسائل الحكم إلى قواده ، إبان اشتداد المعارك بينهم وبين الحسن بن قنون على فهـــم تام للموقف وضرورة الحذر واليقظة ، كما أمرهم باستعمال الحلم والأناة ، والعفو عن من يظفر بهم من العصاة . كل ذلك كدليل على شكر الله تعالى على ما أنعم من ظفر [1] . كذلك يطلب من قواده إشاعة ذلك بين جميع أفراد القبائل الخاضعة لابن قنون حتى يكونوا : على علم برأي أمير المؤمنين في استصلاح أحوالهم وبتقبل إنابة منيبهم ، وإجارتهم من الظالم المستحل لمحارمهم ، المستهلك لنعمهم ، المنتهك لحرمهم ، وإن أمير المؤمنين غير مقلع عنه ولاصارف بأس عزمـه دونه ، واستعانته على ذلك كلـه بالله تعالى حتى يأخذ له بناصيته ، فهو من ورائه محيط ، تعالى جدّه [2] .

كذلك في رسالة تالية منه إلى مولاه غالب الذي أرسل له يشكو غلاء الأسعار عنده لوفرة الجيش ، ويذكر له لجوء الأدارسة اليه بأعداد غفيرة ، نجد الحكم يتبع نفس الخط من الحلم المشوب بالحذر ، فهو يخبر

---

(١) ابن حيان المقتبس في أخبار بلد الاندلس . تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٧ .

قائده ألا يهتم بالأطعمة والأرزاق ، فسبلها اليه متصل ، وموادها موصولة بك ، متلاحقة لديك [1] . وأن عليه أن يجعل همه الأول الحرب حتى يظفر بالمارق ابن قنون .

وقد أنتجت هذه السياسة ثمارها ، فقد عرض عبد الكريم بن يحيي الإدريسي صاحب عدوة فاس على الحكم خضوعه واستسلامه بعد أن هزم ، فقبل الحكم ذلك منه وبايع الحكم بالخلافة هو وأهله وأتباعه وأصدر وثيقة بذلك ، يعلن استسلامه وبيعته وتبرأه من الحسن بن قنون [2] .

ثم توج ذلك بظفره بحسن بن قنون نفسه وأصدر بذلك كتاباً إلى الآفاق يبشر بذلك وانتهاء الحرب في المغرب الأقصى بزوال هذا الخطر عن الأندلس ، وأصبحت تلك البقعة مكاناً يخضع لحكم الحكم بعد أن كان مصدر خطر عليه وعلى سلطته [3] .

هذا وإن الفضل في هذه النهاية الموفقة يعود إلى مقدرة غالب العسكرية وإلى سياسة الحكم الحكيمة القائمة على التسامح والعفو وأخذ الأمور بالمعروف واصطناع العدو أكثر من تدميره .

ومما يدل على روح الحكم العالية وأخلاقه الرفيعة هو جوابه لوزيره جعفر بن عثمان الذي مرض مرضاً شديداً أشفى منه على الموت فأرسل إلى الخليفة كتاباً يسأله أن يخلفه في أهله . ولقد كان جواب الخليفة قطعة رائعة من النبل والكرم والتفضل ، فقد أبدى أسفه لما حل به من يأس وانقطاع رجاء ، ثم يذكر له أن كل ماسأله ورغب فيه لنفسه وأهله

---

(١) نفس المصدر.ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصدر . ص ١٧٤-١٧٥ .

(٣) نفس المصدر . ص ١٧٨ - ١٨٢ .

ومن يتخلف ، فعلى أفضل الذي رغبته وأردته وأملته ورجوتـه ، فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا لما بلوناه من شكرك ومجهود حرمتـك ومحمود صحبتك [1] ...

كذلك أصدر الحكم أوامره إلى قضاته ، أن ينادوا في الناس بضرورة إخراج الزكوات وإعطائها للفقراء والمساكين [2] . ولما ارتاح من الحرب في المغرب الأقصى أسقط عن الناس سدس مغرم الحشد سنة ٣٦٤ هـ [3] وكل ذلك يؤكد الصورة الكريمة السمحة التي رسمناها له .

ولقد وصلت خلافة الأندلس في عهد هذا الخليفة إلى درجة لم تبلغها من قبل ولم تبلغها من بعد ، وقد تقاطرت اليه وفود الاسبان تلتمس عفوه وصفحه وتحالفه ، مع هذا الفريق دون الفريق الآخر ، فقد بلغ ملك الجلالقة أردون عزم الحكم على غزو بلاده فحضر بنفسه إلى بلاط الحكم مع عشرين شخصاً من أكابر دولته ليثني الحكم عن عزمه وليعقد معه صلحاً . وقد استقبله الحكم أفضل استقبال وأعطاه ما سأله . وإن المرء ليعجب لرفعة الحكم عندما نرى ملك الجلالقة يقبل بساطه ويقول : أنا عبد أمير المؤمنين المتورك على فضله ، القاصد إلى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله [4] ..

ثم يذكر الملك للحكم أن الخليفة الناصر كان أحسن استقبال ابن عمه شانجة لما أتى لاجئاً اليه من أردون الذي اختارته الرعية على ابن عمه لظلمه ، وولته ملكاً عليه ، ولكن الناصر أكرم وفادة شانجة وأعاده إلى العرش وخلع أردون ، ولكن شانجـــة كفر النعمة . أما أردون

---

(١) نفس المصدر . ص ١٤٩ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر . ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .
(٤) المقري . المصدر المذكور آنفاً . ١/٣٦٧-٣٦٨ .

فهو خاضع للحكم محكم له في نفسه وولده وماله وأهله . وقد هدأ الحكم روعه ووعده النصرة وأنه سيعيده إلى ملكه : وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك ، ونشد أواخي ملكك ونملكك جميع من أنحاس اليك من أمتك ، ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك ، نقرر بـه حـــد ما بينك وبين ابن عمك (١) .

وهكذا نجد الحكم يقف على قمة المجد في التاريخ الأندلسي كلـه ، داخلياً وخارجياً ، ولكن الفضل في ذلك بالدرجـة الأولى لحكم والده العظيم وجهـوده المباركة ، ومن ثم لشخصية الحكم وسياسته الراشدة الحكيمة ، ولانعتقد أن هناك عزاً أعز أو مجداً أمجد من أن يصبح الخليفة الأموي في قرطبة ملجأ لملوك الاسبان ، وموئلاً وحكماً يحكم بين الاخوة وأبناء العم المتنازعين ، ويصدر المراسيم الناظمة لعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ويرسم الحدود بين المتنازعين ، وكفى بذلك مجداً وعزاً .

٧ ــ هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ٣٦٦ ــ ٣٩٩ هـ/٩٧٦ ــ ١٠٠٩ م :

توفي الحكم وخلف طفلاً صغيراً قاصراً هو هشام المؤيد ، وقد خضع الحكم لعواطفه الشخصية فجعل ابنه القاصر ولياً لعهده ، فـأدى الأمر إلى تدهور الوضعين الداخلي والخارجي ، وإلى صراع حاد حول الوصاية على الخليفة الصغير ، ولو أنه لم يخضع لعواطفه الشخصية ، وعـين ولياً لعهده أحد إخوته الراشدين لتغير الوضع ، ولكن هذا ماحدث . ولايمكن الحكم على شخصية هشام البتة لأنه تولى الحكم صغيراً ثم سقط تحـــت

(١) نفس المصدر .

وصاية المنصور بن أبي عامر القاسية التي سحقته ولم تسمح له أن يتحرك إلا ضمن حدود مرسومة مدى حكمه وحكم ابنه من بعده ، فلما زال كابوس العامريين عنه لم يكن بحالة عقلية أو نفسية تمكنه من حسن التصرف بزمام نفسه ، بله زمام الأمور في بلده ، فأدى الأمر إلى أوخم العواقب له وللأسرة الأموية وللأندلس عامة .

كان هناك فريقان يتنازعان السيطرة على الخليفة الصغير : الحاجب المصحفي يساعده ابن أبي عامر والقائد غالب . ولقد دار صراع بين الطرفين خسر فيه غالب المعركة ، وصفا الجو للمصحفي ولكن إلى فترة ، إذ نازعه السلطة المنصور بن أبي عامر وتمكن من التغلب عليه واعتقاله حتى الموت .

والمنصور بن أبي عامر شخصية فذة ، وهو مزيج من طموح لا يعرف حدوداً وشجاعة لاتهاب وقسوة لاترحم ، وسياسة ثابتة . إنه يعرف مايريد ويعرف الطريق إلى تحقيقه ، ويعرف مالايريد ويعرف الطريق إلى منعه ، وقد نبع من أصل وضيع ، وتمكن ، بوسائله البعيدة عن الأخلاق ، أن يصل إلى مايصبو اليه ، وأصبح حاكم الأندلس الأوحد ، وتغلب على الخصوم الداخليين والخارجيين ، وأن سياسته الداخلية تثير الاعجاب ، كما وأن حروبه وانتصاراته ، ولاسيما ضد الإسبان ، تثير أقصى عوامل الفخر والعزة في نفوسنا هذه الأيام . ولكن خطأ المنصور الأكبر أتى من إضعافه الخلافة الأموية ، القاعدة الشرعية لكل حكم في الأندلس ، بشكل رهيب ، دون أن يحاول إحلال نفسه محلها ، لعلمه باستحالة ذلك . ولقد سارت الأمور بشكل جيد طوال حياته ، لأن يده القوية كانت تمسك بكل شيء ، وعينه اليقظة كانت تراقب كل شيء . ولكن من يضمن

استمرار الأمور بعد زوال اليد القوية ؟ ولذلك ماإن زال المنصور من الوجود حتى ورثه ابنه عبد الملك المظفر في الحكم وفي السيطرة على الخليفة المستضعف ، وقد سارت الأمور سيراً جيداً خلال حياته القصيرة لأن في عبد الملك لمحات من شخصية أبيه ، ولكن ماإن حل في الحكم عبد الرحمن بن المنصور الذي تلقب بلقب ناصر الدولة حتى بدأ الاضطراب الذي أودى به وبالخليفة وبالخلافة وبالأندلس . فقد حاول الحصول على مالم يجرؤ على التفكير فيه أبوه ولا أخوه ، حاول الحصول على منصب الخلافة بعد هشام المستضعف ولم يكن هشام في وضع عقلي أو نفسي أو مادي يمكنه من رفض أي طلب للشخص المسيطر عليه ، فأصدر مرسومه الشهير بجعل عبد الرحمن هذا ولياً لعهـــده .

وهذا يعني انتقال الخلافة إلى أبي عامر . لقد صبر شعب قرطبـــة والأندلسيون والأمويون على احتكار آل عامر للحكم ، وصبروا على حجر الخليفة والتحكم في مصائر العباد والبلاد ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين ، بحال من الأحوال ، أن يصبروا على انتقال الخلافة لغير آل أمية ، فقد ارتبط مجد الأندلس ومجد قرطبة بهذه الأسرة العظيمة ، ولم ينس الشعب أمجاد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، ولم تنس قرطبة أنها مدينة بعظمتها وقوتها وجاهها لهذين الخليفتين العظيمين ، وحتى عندما كان المنصور يضيف أمجاده إلى الأمجاد السابقة ، اعتبر الشعب ذلك امتداداً لعمل الناصر والحكم وباسميها تم ماتم من فتوح . لذلك ثار الشعب ثورة عارمة انتهت بالقضاء على آل أبي عامر كلياً وعلى الخليفة العاجز ولكـــن هـــذا الشعب الثائر عجز عن إيجاد البديل للعامريين ، ذلك أن المنصور أضعـــف جميع الأطراف ، وكان هـــو وحـــده كفـــوءاً للقيـــام بمهـــام الدولة

وتصريف الأمور ، فلما زالت اليد القوية التي كانت ملجمة لكل الأطراف انفجرت الأحقاد وثارت النعرات وحارب القوم بعضهم بعضاً ، وكان ذلك من أكبر الكوارث التي أصابت المسلمين في الأندلس ، فسقطت الأسرة الأموية وانقسمت الأندلس إلى عدد كبير من الدويلات التي سميت دول الطوائف ، واستغل الاسبان هذه الفرصة فشنوا حرباً لاهوادة بها على الأندلس وبدأوا يحققون ما يصبون اليه من استرجاع البلاد وإذلال العباد .

وليس لدينا وثائق كثيرة عن عهد المنصور بن أبي عامر ، ولكن الرسائل التي دارت بينه وبين المصحفي الذي كان أستاذه ثم صار أسيره تكشف عن بعض نواحي شخصيته ، فقد أرسل المصحفي من سجنه رسالة استعطاف إلى المنصور لعله يرق لحاله ويطلق سراحه ، ولكن النتيجة كانت عكسية إذا زاد سخطه عليه وأجابه بأشعار منها مايلي :

نفسي إذا سخطت ليست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم [1]

كذلك كان المنصور قاسياً على نفسه وعلى من بخدمته أشد القسوة إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، وهو الذي غزا الإسبان أكثر من خمسين غزوة لم تنكس له في خلالها راية قط وكان النصر حليفه في كل معاركه ضد الإسبان ، وكانت قسوته هذه ، إلى جانب قيادته الرائعة ، من أهم مقومات شخصيته . ولقد برزت قسوته هذه كل البروز في رسالته التي وجهها إلى قواد وأفراد جيشه سنة ٣٩٠ هـ عندما خاض آخر معاركه ضد الإسبان وربما أشرسها ، وفي تلك المعركة ولي قسم كبير من جنده الأدبار ، ولكن المنصور استلم القيادة بنفسه وصبر بشخصه مع حرسه

---

(١) نفس المصدر ١/٣٨٤ .

الخاص وأثير غلمانه وفريق من الجند فحول الهزيمة الماحقـــة إلى نصر مؤزر ، ووجه بعد المعركة رسالة قاسية مرة إلى أفراد جيشه يقرعهم على تخاذلهم وفرارهم ويصفهم باليعافير والرئال : ... فحين جاءكم شانجة بالأمنية وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ماعرفتم ، ونافرتم ما ألفتم حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل وأجفلتم إجفال الرئال عن المقتنصين ، ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار وحرروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم (١) .

وتدل وصيته التي أوصى بها ابنه عبد الملك ، لما خلفه في منصبه ، على فهم لأصول الحكم المستبد المستنير المطلق الذي آمن بـــه المنصور وطبقه ، فهو يوصيه بالحذر وعدم الاسراف في الانفاق ، وأن لايهيج العامة لأنها تريد الأمن وخفض العيش وقد حقق المنصور لهـــا ذلك . كذلك يطلب اليه أن ينفرد بالتدبير دون صاحب القصر وألا يسمح له بالتدخل في شؤون الحكم وأن يستمر في الحجر عليه ، مع إعطائـــه مايكفيه من المال ومع الحفاظ على المظاهر . كذلك أوصاه بالإحسان إلى أقربائه وصلة رحمهم وبر أخيه وغلمانه . ويختم وصيته بتحذيره وتحذير غلمانه من التحالف مع بني أمية والركون اليهم بحـال من الأحوال : وإياك أن تضع يـــدك في يد مرواني ماطاوعتك بنانك ، فإني أعرف ذنبي إليهم (٢) .

ولقد استمر عبد الملك بن المنصور الذي لقب بالمظفـــر في سياسة

---

(١) ابن الخطيب ، لسان الدين . تاريخ اسبانيا الاسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويـــع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . تحقيق ا. ليفي بروفنسال . بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ م . ص ٧٢

(٢) نفس المصدر ص ٨١ - ٨٢ .

والده على جميع الأصعدة داخلياً وخارجياً . كذلك استمر على حجبه الخليفة مع التوسعة عليه ، فقد دعا عبد الملك هشاماً المستضعف الى نزهة في قصره وهناك خدمه حق الخدمة ، فسر ذلك هشاماً ووجه لعبد الملك كتاباً يشكره على ذلك ويلقبه بالمظفر [1] .

ولكن الولد الثاني للمنصور واسمه عبد الرحمن طمح إلى أكثر من ذلك ، طمع في الخلافة ، وكان ضعيفاً عاجز الرأي أساء إلى الجند وإلى أنصاره ، وإلى العامة ، فطلب من هشام أن يجعله ولي عهده ، فاستجاب له هشام وأصدر مرسوماً بذلك ، هو من أشأم المراسيم في تاريخ الأندلس كله ، يولي بموجبه عهده : المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر [2] .

ولكن شعب الأندلس عامة وشعب قرطبة بخاصة كان له رأي آخر في الموضوع ، ولم يصبر على نقل الخلافة من البيت الأموي فثار ثائرهم وقتلوا الناصر العامري والخليفة الأموي ، وانقسم القوم إلى عرب وبربر ، وإلى يمن وعدنان ، وإلى عامريين وسواهم . ولم يتمكن من حل محل هشام في منصب الخلافة أن يفعل شيئاً ، وأزيلت رسوم العامريين في الأندلس وقتل أفرادهم وطوردوا وهدمت الزاهرة رائعة الحسن ، واستقل كل منتزٍ في ناحية من نواحي الأندلس ليبدأ مايعرف بالتاريخ الأندلسي بعصر ملوك الطوائف ، وهو عصر من أحلك عصور التاريخ الاسلامي صورة .

---

(١) نفس المصدر - ٨٨ .

(٢) نفس المصدر ٩١ - ٩٣ .

جـ ـ عصر ملوك الطوائف ٤٢٢ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٩٤ م .

امتد هذا العصر أكثر من نصف قرن وقسمت فيه الأندلس إلى عدد كبير من الدويلات الهزيلة ، وكانت كلها تدفع الجزية إلى الطاغية ملك قشتالة كما يسميه المؤرخون المسلمون المعاصرون ، وقد سيطرت على الحياة السياسية في الأندلس آنذاك ثلاث قوى : عربية ، بربرية ، عامرية فقد أوجد العرب عدداً من الدويلات كان أقواها دويلة آل عباد في إشبيلية ، وهم عرب من أصل قحطاني ، كما أوجد البربر عدداً من الدويلات في عدد من مدن الأندلس كآل زيري في غرناطة . وهناك العامريون أو بالأحرى غلمان العامريين وأتباعهم الذين تمركزوا في عدد آخر من الدويلات كخيران العامري وكنيره الذين تمركزوا في جزيرتي ميورقة ومنورقة .

وكما قلنا سابقاً : كانت هذه الدويلات تدفع الجزية للملوك الاسبان دفعاً لشرهم وجلباً لنفعهم ، وكانت تحارب بعضها بعضاً وتستعين ، في كثير من الأحيان ، بجنود مرتزقة من الاسبان للتغلب على هذا الرئيس أو ذاك . كذلك ازدهرت الحياة الأدبية في هذه الدويلات ازدهاراً رائعاً وكان قسم من حكامها أدباء وشعراء أمثال المعتصم بن صمادح والمعتضد بن عباد وابنه المعتمد ، وكان كل حكامها يشجعون الأدباء والشعراء فقامت للأدب سوق رائجة كل الرواج ونشطت حركة التأليف بشكل رائع أخاذ .

كذلك امتازت الحياة السياسية بين تلك الدويلات بلا أخلاقياتها ، إذ لم يكن يتحرج أحدهم عن عقد مودة وصداقة مع الآخر ، وفي نفس الوقت يتحالف مع خصمه أو أخصامه أو يفسد أتباعه عليه أو يدبر ضده إنقلاباً أو يثير عداء الاسبان عليه .

وامتاز قسم كبير من الحكام بقسوتهم المفرطة على أعدائهم حتى تجاوزوا

حد المعقول الانساني . فقد ذكر كثير من المؤرخين أن آل عباد في إشبيلية كان لديهم خزانة ، أو حديقة حسب رواية أحد المؤرخين ، نصبت فيها رؤوس أعدائهم التي قطعوها ، وعلقوا في أذن كل رأس رقعة كتب عليها اسم صاحب الرأس والمناسبة التي أدت إلى قطعه ، وكانت تسمى حديقة الرؤوس ، ويجدون متعة في ذلك .

ولقد افتتح هذا العهد القاضي ابن عباد لما استبد بحكم إشبيلية بمسرحية ظن أنها تثبت سلطانه وتسبغ الشرعية على حكمه ، فأعلن « اكتشافه » الخليفة المنكود البائس هشام المؤيد ، وأنه أصبح في خدمة الخليفة الشرعي : فهذا مولاكم أمير المؤمنين قد صرفه الله عليكم وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم[1] .

ولقد فسدت العلاقات بين الحكام ولم يعد أحد منهم يثق بالآخر لأنه يعلم أنه يخدعه ويمالىء عليه وإذا وجد فرصة خانه وغدر به ، كما فعل المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية بابن ذي النون لما خدعه عن قرمونة ومناه بقرطبة فوثق به ابن ذي النون وسلمه قرمونة ، فكانت النتيجة أنه خسر قرمونة وقرطبة[2] حتى إنه لم يكن من المستغرب أن يغدر الولد بأبيه أو يتآمر ضده ، كما فعل إسماعيل بن المعتضد بن عباد لما تآمر ضد أبيه وحاول قتله وانتزاع الملك منه ، ولكن الوالد نجا من المؤامرة وقتل ابنه وأذاع بياناً وجهه إلى ملوك الأندلس آنذاك يخبرهم بما حدث ، ويشبه فعل ابنه به بفعل المنتصر بأبيه المتوكل ، وبفعل أحد ملوك الفرس بأبيه

---

(١) عنان ، محمد عبد الله . دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي . طبعة ثانية مزيدة منقحة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦٩ م ص ٣٨ ،

(٢) ابن عذاري ، المصدر المذكور آنفاً . ٣/٢٨٣ .

دون ذكر الأسماء [1] . ثم يذكر أنه نفذ حكم العدل في المتآمرين بما يستحقونه [2] . وأخيراً يطلب من الجميع الاعتبار بما حدث وكيف أن أبناء هذا الزمان عاقون لآبائهم [3] .

ووسط هذا الحلك من انحطاط الحياة السياسية والأخلاقية نرى بعض اللمعات التي تشبه لمعات البرق في ليلة حالكة السواد ، فقد اغتصب وكلاء المعتصم بن صمادح حاكم المرية قطعة أرض لشيخ وضموها للحدائق التي أنشأها المعتصم وسماها باسمه الصمادحية . ولم يتمكن المسكين من عرض ظلامته على الحاكم ، فاحتال بأن كتب رقعة ووضعها ضمن قصبة جوفاء وألقاها في الساقية التي تمر أمام المعتصم فعلاً فأخذها فوجد فيها الشكوى من اغتصاب أرضه : أنت ملك قد وسع الله تعالى عليك ومكن لك في الأرض ، ويحملك الحرص على مايفنى أن تضم إلى جنتك الواسعة العظيمة قطعة أرض لأيتام حرّمت بها حلالها [4] ... ويبدو أنه كانت لاتزال في نفس المعتصم هذا بقية من خير فبحث الأمر فوجده كما ذكر الشيخ فأمر بإعادتها اليه .

ولقد اغتنم الاسبان فرصة ضعف الأندلس وتقسمها إلى عدد كبير من الدويلات فألحوا عليها بالهجوم ، واسترجعوا قسماً مهما من الأراضي الأندلسية وتوجوا عملهم هذا باحتلال طليطلة عاصمة القوط القديمة . وقد أدرك الاسبان سقوط أخلاق الأندلسيين وفسادهم آنذاك ، وأدركوا أن ذلك من أهم أسباب ضعفهم وانتصار الاسبان عليهم ، نجد ذلك واضحاً في

---

(١) عنان . المصدر المذكور آنفاً ٥٠ - ٥١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) المقري المصدر المذكور آنفاً . ٤/٢٣٨ - ٢٣٩ .

رسالة فردلند ملك قشتالة إلى أهل طليطلة لما حاصرها أشد حصار ، وحاول الطليطليون دفعه دون جدوى عن مدينتهم ، ودارت بين الطرفين مراسلات كثيرة ، وأخيراً أخبرهم أنه لن يرحل عنهم حتى يحكم الله بينه وبينهم : وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ... ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم (١) .

ولقد سقطت طليطلة بيد فردلند ووضعت بنود لحماية السكان المسلمين ولكن عبثاً ، إذ لم يف الاسبان منها بشيء واستباحوها وفعلوا بها الأفاعيل .

وقد وجه الفونسو السادس رسالة تهكمية ملؤها الصلف والوعيد إلى المعتمد بن عباد ، ولقب نفسه فيها الأنبيطور ذا الملتين . ولقد حاول المعتمد أن يرد عليه ، ولكن كيف يرد الضعيف العاجز الذي يدفع الجزية على القوى ذي اليد العليا (٢) ؟ كذلك وجه الفونسو رسالة تهديدية تقريعية إلى المتوكل على الله حاكم بطليوس فكان الجواب جواب العاجز الجبان .

ولعل أروع تصوير لحال ملوك الطوائف آنذاك هو الرسالة الشفهية التي وجهها الفونسو إلى المعتمد قبل معركة الزلاقة : كيف أترك قوماً مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم : المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، وكل واحد منهم لايسل في الذب عن نفسه سيفاً ، ولايرفع عن رعيته ضيماً ولاحيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم شداً (٣) .

---

(١) ابن عذاري . المصدر المذكور آنفاً ، ٢٨٢/٣ .

(٢) عنان . المصدر المذكور آنفاً ٧٥ - ٧٦ .

(٣) نفس المصدر — ٧٤ .

قد لاتكون هذه الرسالة صحيحة ، ولكنها تصور الوضع أصـــدق تصوير . ولقد ظلت الأندلس تتخبط بين شقي الرحا : الفساد الداخـلي والانقسام ، والعدو الخارجي المهدد بالابتلاع حتى أنقذها الله بالمرابطين .

والمرابطون جماعة من البربر سكان شمالي إفريقية اعتنقوا الاسلام ، وهم قوم على الفطرة ، فتأثروا به كل التأثر وتفاعلت نفوسهم مع مبادئـه السامية ، ورزقهم الله قائداً فذاً هو يوسف بن تاشفين فتمكنوا من تأسيس امبراطورية ضمت الجزائر ومراكش الحاليتين ، إلى جانب قسم كبير جداً من الصحراء الجنوبية ، وبرزت هذه الدولة كأقوى دولة في المنطقـة ، وجعلت شعارها الجهاد في سبيل الله . ولم يكن أمام الأندلسيين خيار : إما أن يرعوا الخنازير في جبال قشتالة أو أن يرعوا الجمال في صحاري إفريقية وقد اختار القوم المصير الثاني ، فأثبتوا أنهم ، برغم كل ما أصابهم من انحراف وتشوه وفساد، في صميمهم مسلمون ، يغارون على الاسلام ومصيره وغفر هذا الموقف لهم كثيراً من سيئآتهم .

وقد أجمع القوم على توكيل ابن عباد في استصراخ ابن تاشفين لنصرة الأندلس ، وكانوا يعرفون تقصيرهم وعجزهم وانهم جنوا على أنفســـهم وشعبهم وبلادهم ودينهم ، وقد انعكس ذلك في الرسالة التي وجهها المعتمد بن عباد باسمه واسم ملوك الأندلس الي يوسف بن تاشفين يستصرخه لنجدة المسلمين في الاندلس: أما بعدفإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهم ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك[1] .

---

(١) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م ٦/١١٢ - ١١٣ .

ولقد لبى يوسف بن تاشفين نداء الأندلس ونداء الأندلسيين واصطدم بجيوشه ، تؤازره جيوش أهل الأندلس ، بجيوش الاسبان بقيادة الفونسو السادس ، في معركة الزلاقة الشهيرة التي أدت إلى انتصار المسلمين وهزيمة الاسبان وتراجع المد الاسباني إلى جزر ولو إلى حين .

ولقد دارت بين يوسف بن تاشفين والفونسو السادس مراسلات كثيرة قبيل المعركة ، وحاول الفونسو خداع ابن تاشفين ، ولكن ذلك كله لم يجده نفعاً ، ونشبت المعركة بين الطرفين ، والتي تعتبر من أروع معارك الاسلام وأمجدها يوم الجمعة العشرين من رجب سنة ٤٧٩ هـ ، وهي معركة الزلاقة . وتمكن المسلمون بتآزرهم وتعاونهم وثباتهم وشجاعتهم ، وقبل كل شيء بإيمانهم العظيم بدينهم ومبادئه ، من تحطيم الجيش الاسباني تحطيماً يكاد يكون تاماً كاملاً وأصيب قائده الفونسو بجراح وهرب مع قلة من أفراد جيشه تحت جنح الظلام . وقد صور ذلك أجمل تصوير المعتمد في رسالته لابنه يصف المعركة : كتابي هذا ... وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين ... وهزم الكفرة المشركين وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم فالحمد لله على مايسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره ... بعد إتيان النهيب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها [1] ...

ولقد أبلى المعتمد نفسه في هذه المعركة أحسن البلاء وأعظمه ، وذلك بشهادة يوسف بن تاشفين نفسه الذي أرسل رسالة يشرح المعركة وظروفها إلى تميم بن المعز بن باديس في المهدية بعد انتهائها : ... ولجأ

---

(١) المقري . المصدر المذكور آنفاً ، ٦/١٠٢ .

(أي المعتمد بعد أن هاجم جيش الفونسو جيشه وتخلى عنه الجميع) في الأخيبة بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولافارس من فرسانه وعبيده يرجع اليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم[1] .. ثم يقص يوسف ماجرى بعد ذلك من وصول الصريخ اليه وهجومه بجيشه على الفونسو والتحام المعركة . وانظر إلى قوله لنفسه وأتباعه : هذا آخر يومنا من الدنيا فلتموتوا شهداء [2] ... فثبت الله أقدامنا وقوي أفئدتنا والملائكة معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هاربين وفروا ذاهبين [3] . وانظر إلى تواضعه واعتماده على الله تعالى ونسبة الظفر الذي حازه المسلمون على الاسبان إلى الله تعالى لا إلى نفسه أو جيشه أو شجاعته مع أنهم بذلوا أقصى مايتوقع بذله من إنسان في تلك المعركة الضارية حتى تمكنوا من تحقيق النصر : ... وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون دون طعنة تلحقه ولاضربه تثخنه [4] .

ولكن معركة الزلاقة ، والنصر الذي حازه المرابطون والأندلسيون لم يحل مشكلة الأندلس ، ذلك أن معركة الزلاقة كانت معركة مهمة ولكنها لم تكن حاسمة ، فقد أصابت الاسبان بجروح عميقة ولكنها غير قاتلة كما وإن العلاقات ساءت بين المرابطين وبين ملوك الطوائف ، وبين ملوك الطوائف بعضهم بعضاً ، وخشى يوسف على جيوشه ، إن بقيت في الجزيرة الخضراء ، أن تصبح في جزيرة وسط

---

(١) عنان . المصدر المذكور آنفاً ٤٤٦ ـ ٤٥٠ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .

بحر من الأعداء . وأثار بعض الناس ، ولاسيما بعض قواده ، طمعه في احتلال الأندلس كلها وضمها إلى سلطانه . ولم يحسن ملوك الطوائف من جهتهم التصرف فأدت تلك الظروف كلها إلى أن قرر يوسف بن تاشفين إحتلال الأندلس كلها وضمها إلى ملكه ، وأن يقوم هو وجيشه بعبء الجهاد والدفاع عن الأندلس. ولقد نفذ يوسف فكرته هذه واحتلت جيوشه الأندلس بكاملها . ولقد اختلف مصير حكام الأندلس ، فأغلبيتهم كان مصيرهم القتل والأسر والنفي كما حدث للمعتمد بن عباد الذي احتل المرابطون مملكته ونفوه مع أسرته في القيود إلى أن مات في أقصي المغرب الأقصى حيث أمضى ماتبقى من حياته . أما الذين لم يقاوموا يوسف بن تاشفين وسلموا له ممالكهم طواعية أمثال الأمير عبد الله بن زيري أمير غرناطة ، فقد كان مصيره أفضل من مصير المعتمد بن عباد ، فقد خير في النزول في أي مكان أراده باستثناء غرناطة ووسع عليه وعومل معاملة أفضل [1] . أما الحاكم الوحيد الذي نجا من هذا المصير فهو المستعين بالله بن هود حاكم سرقسطة ، ذلك أنه سلك سلوكاً حسناً وأرسل إلى يوسف بن تاشفين يبدي ولاءه وخضوعه واستعداده ليكون سداً بين يوسف وبين الأعداء الاسبان وتعهد بتقديم الهدايا والطرف: ونحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ومناعين تطرف وقد قنعنا بمسالمتكم فاقنعوا منا بها إلى مانعينكم به من نفيس الجواهر [2]. ويبدو أن يوسف بن تاشفين رأى أن من الأفضل له وللأندلس وللخطة الدفاعية عنها أن يترك ابن هود في سرقسطة التي هي الثغر الأعلى سداً

---

(١) عبد الله . مذكرات الامير عبدالله آخر ملوك بني زيري في غرناطة المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥ م ص ١٤٩ .

(٢) ابن عذاري ، المصدر المذكور آنفاً ، ٤/١٤٥ .

منيعاً بينه وبين الاسبان وأن يعمل على تقويته ففي ذلك تقوية له وللأندلس وللجهاز الدفاعي بكامله ، فذلك خير من ضمها مباشرة إلى ملكه والقيام بجيوشه بهذه المهمة ، ولذلك نراه يجيب ملتمس ابن هود أفضل إجابة وأكرمها ، ويرسل له رسالة تفيض بأنبل العواطف : وأما الذي عندنا ففؤاد صريح وعقد في ذات الله تعالى صحيح [1] ... وأصغينا في تفصيل جمله إلى تلخيصها [رسولا ابن هود] فألقينا اليها مراجعة عن ذلك مالقناه ، وسفرنا لهما عن وجه مقصدنا فيه حتى يستبيناه ، من جملة الوفاق وجماع الانتظام في سلك مايرضي الله تعالى والاتساق [2] ... وبالجملة فقد انتهى عهد ملوك الطوائف في الأندلس إلى نهايته المنطقية إذ لم يكن بإمكان حاكم قوي كيوسف أن يسمح لهؤلاء الحكام بالانتزاء والتآمر والتقاتل والتخاصم ، مما قد يؤدي إلى تهديد جيوشه وسلامة الأندلس وسلامة القضية التي يدافع عنها ، ففعل مافعل وهو تحت تأثير المصلحة العامة أكثر مما هو تحت تأثير النوازع الشخصية . ولكنه يلام بعض اللوم لسوء معاملته لبعض ملوكهم كالمعتمد بن عباد الذي أبلى أروع البلاء وأعظمه في معركة الزلاقة ، وكان لموقفه المشهور في الدفاع عن الاستنجاد بالمرابطين أثر كبير في ترجيح كفة المطالبين بهذه النجدة . وكنا نود لو أنه رعى له هذه المواقف السابقة فأحسن معاملته واحترم فيه شيخوخته وأدبه وأريحيته وكرمه وجهاده وإخلاصه .

---

(١) ابن الخطيب ، المصدر المذكور آنفاً ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) نفس المصدر .

د ـ المرابطون ٤٥٣ ـ ٥٤١ هـ/١٠٦١ ـ ١١٤٥ م .

نبعت حركة المرابطين في المغرب الأوسط ، وجعلت شعارها نشر الاسلام والدفاع عنه عن طريق التبشير به بين الوثنيين ، كما جعلت شعارها المرابطة في الثغور للدفاع عن بلاد الاسلام ، ومن هنا أتى إسم المرابطين ولقد كان لروادها الأوائل فضل كبير في نشر الاسلام بين القبائل الوثنية جنوبي الصحراء الجزائرية ، كما كان لهم فضل الدفاع عن الاسلام وحماية المسلمين من الأعداء الداخليين والخارجيين . وقد برز من زعمائها الأوائل يوسف بن تاشفين الذي تمكن أن يرأب الصدع في الحركة المرابطية وأن يعيد توحيد المرابطين تحت قيادته ، وأن يسير في بناء الدولة المرابطية إلى الغاية المنشودة ، وهي تأسيس دولة قوية ضمت القسم الأكبر من شمالي إفريقية ، مع التوسع نحو الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي ، ونشر الاسلام والدفاع عنه .

وإن الدارس لشخصية يوسف بن تاشفين ليعجب للبساطة التي تحلى بها هذا القائد . فقد كان بسيطاً في حياته الخاصة والعامة ، سليم الطوية صافي السريرة ، ظاهره كباطنه ، وظل هكذا حتى أواخر أيام حياته ، لم يغيره الغنى والجاه والنفوذ . كذلك يمتاز بإيمانه العميق بمبادئه التي أعلنها ونذر نفسه من أجل تحقيقها ، حتى ذاع صيته في جميع أقطار الاسلام ، واشتهر بصلابته في إيمانه وإخلاصه في تقواه . هذا وإن هذه البساطة وهذا الايمان وهذا الاخلاص هي صفات النفس المؤمنة التي فطر الله الناس عليها ، ولذلك حببته هذه الصفات من أتباعه البربر الذين اعتنقوا المبادىء التي نادى بها وأطاعوه وساروا تحت لوائه . ذلك أن البربر كانوا آنذاك قوماً أقرب إلى الفطرة فاستجابوا لدعوة الفطرة يقودهم

رجل فطرته سليمة وطويته صافية . وهذا يعلل إلى حد كبير ، نجاح يوسف في دعوته .

ولقد ظل يوسف ثابتاً على مبادئه حتى نهاية حياته ومخلصاً لها ماعاش من عمر ، على الرغم من الدنيا العريضة التي أتته والترف الذي أصاب حياة المرابطين بعد احتكاكهم بالأندلسيين وبعد أن أصبحت الأندلس قسماً من امبراطوريتهم . ولكن الوضع تغير بعد يوسف ولم يكن ابنه وخليفته من بعده على مثل أبيه ، فأخذ القوم بأسباب الترف وركنوا إلى الراحة والدعة ، وتقاعسوا عن أداء الواجب المفروض عليهم في الدفاع عن الأندلس وأصيبوا بعدد من الهزائم المروعة أمام الأعداء الاسبان ، وتفشى بينهم الترف والفساد ، ونبعت في عهد علي الحركة الموحدية التي قدر لها أن تدمر المرابطين وأن تحل محلهم . ولقد كان علي أقرب إلى الخير والصلاح منه إلى الشر والفساد ، ولكن الظروف كانت أقوى منه ، وحاول إيقاف التيار فعجز ، واضطربت إدارته وأوضاعه داخلياً وخارجياً . وبعد وفاته واستلام ابنه تاشفين مكانه تسارعت عوامل الهدم في البنيان المرابطي حتى تمكن الموحدون من القضاء عليهم والحلول محلهم .

١ ـ يوسف بن تاشفين ٤٥٣ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٦١ ـ ١١٠٧ م .

لما شعر يوسف بن تاشفين بقوته وصلابة الأرض التي يقف عليها اتخذ لقباً مهماً ذا مغزى هو لقب أمير المسلمين ، وهو لم يتخذ لقب أمير المؤمنين ، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك لأنه كان آنذاك أقوى من الخليفة العباسي أو الخليفة الفاطمي . ولكن اتخاذ هذا اللقب يعني القطيعة مع النظامين العباسي والفاطمي . وكانت الدعوة المرابطية أقرب بكثير ، بمبادئها ومثلها ، إلى الدعوة العباسية وإلى السنة والجماعة من الدعوة الفاطمية

والحركة الشيعية . ولم يكن في نية المرابطين وزعيمهم يوسف أن يقطعوا علاقتهم بالعباسيين ، على العكس كانوا يريدون تعزيزها ، وحاولوا الاعتراف بشرعية حركتهم وشرعية دولتهم عن طريق الحصول على تقليد من الخليفة العباسي الموجود آنذاك . لذلك أصدر يوسف مرسوماً إلى جميع ولاته يطلب منهم أن يلقبوه بلقب : أمير المسلمين وناصر الدين [1] ، وذلك : لنمتاز به على سائر أمراء القبائل [2] . وكان ذلك في منتصف محـــرم سنة ٤٦٦ هـ .

كذلك لجأ يوسف ، بعد أن صلب عوده وشاع ذكره وعرف أثره ، الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب منه تقليداً يجعل ولايته شرعية على المناطق التي سيطر عليها . وقد كان الخليفة عند حسن ظن يوسف به ، وأرسل له تقليداً شرعياً يعدد فيه الوصايا ويوجهه الوجهة الشرعية في حكم البلاد والرعايا . وهو يذكر أنه حين انتهى اليه [إلى أمير المؤمنين] ماهو عليه من ادراع جلابيب الرشاد في الأصدار والايراد ، واتباع سنن من أبدى وأعاد ، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد ... واتضح ماهو متشبث به من صحة الدين واليقين ... في ضمن ماطوى عليه ضلوعه ، وأدام لهجه به وولوعه ، من موالاة لأمير المؤمنين يدين الله تعالى بها ، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها ... فولاه الصلاة بأعمال المغرب والمعاون ، والأحداث والخراج والضياع والأعشار والجبذة والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء ، والمظـالم وأسواق

---

(١) حركات ، ابراهيم . المغرب عبر التاريخ . الدار البيضاء ، مطبعة دار السلمي ، ١٩٦٥ م . ص ٢٠٨

(٢) نفس المصدر .

الرقيق ، والعيار في الضرب والطرز والحسبة ... سكوناً إلى استقلاله بأعباء ما استكفاه إياه ، واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ماينشر ذكره ويطيب رياه [١] ...

بعد ذلك ينتقل الخليفة إلى الوصايا المتنوعة المعروفة ، فيوصيه أول مايوصيه بتقوى الله تعالى في الاعلان والاسرار [٢] ، ثم يوصيه بالائتمام بكتاب الله تعالى والإستضاءة بمصباحه [٣] . وأن يحافظ على الصلوات ، وأن يسعى في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة ، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ، ولولي عهده العدة للدين القاسم بن عبد الله بن محمد بن أمير المؤمنين أدام الله تعالى به الامتاع ... ثم لنفسه ، جارياً في ذلك على ما ألف من مثله [٤]. ثم يوصيه بإخراج الزكاة على الوجه الشرعي ، بعد ذلك يوصيه بحسن السيرة والبعد عن الرذيلة وفعل الخير ، وأن يحسن لأتباعه وأنصاره وأن يعدل في الرعايا قبله ، وأن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، وأن يحمي الطريق ، وأن يلقي القبض على إباق العبيد وإعادتهم إلى أصحابهم ، وأن يختار للشرطة رجالاً أكفاء أقوياء ، حتى يقتلعوا الشر من جذروه ، وحتى يدعموا أحكام القضاة خير دعم وأقواه ، وأمره بتفقد السجون ،وضبط النفقات ، وقطع دابر الرشوة والسرقات ، وأمره بالاستعداد الدائم والدائب للحرب والجهاد وأمزه أن يختار عمال الخراج والعشور والصدقات من الأتقياء البررة ، وكذلك الحال في أمر الحسبة والطراز ودور الضرب والرقيق [٥] . وبالجملة رسم الخليفة

---

(١) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القاهرة دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ - ١٩١٩ م . ٣١/١٠ - ٤٥

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

ليوسف برنامج عمل كاملاً ودستوراً للسير بموجبه لوسار بموجبه أي حاكم لغدت بلاده جنة الله في أرضه .

ولم يكتف يوسف بما حقق من شرعية ، وإنما لجأ أيضاً إلى حجة الاسلام الغزالي الذي كان معاصراً له فأرسل له أحد الفقهاء في حضرته فقص على الامام الغزالي سيرة يوسف في تقواه ، ودينه ، وجهاده ، ورسم له صورة مشرقة كل الاشراق ، فأصدر الامام الغزالي فتوى شرعية تثبيت شرعية ولاية يوسف وتجعل الخروج عليه خروجاً عن الدين ومروقاً من الاسلام والايمان . والملاحظ في هذه الفتوى أن الغزالي يجعل الاعتراف بالخليفة العباسي شرطاً أساسياً وركناً رئيسياً من أركان شرعية الحاكم الذي يعترف بالخليفة العباسي : ... وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء ، ومخالفته مخالفة للإمام ، وكل من تمرد واستعصى فحكمه حكم الباغي ، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته[٥] ... وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ، ومتى تركوا المخالفة وجب الكف عنهم[١] ...

ويبدو أن بعضاً من مناوئي يوسف احتجوا بعدم وصول تقليد من الخليفة العباسي ، ويرد الغزالي هذا القول بمايلي : ... وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، حكم الباغي على نايب الامام ، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة من وصول المنشور بالتقليد ، فهو نايب

---

(١) عنان ، محمد عبد الله . عصر المرابطين والموحدين في الاندلس . القاهرة ، لجنة التأليف ، ١٩٦٤ م . ١/٤٢ - ٤٣ .

(٢) نفس المصدر .

بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل استولى على قطر من أقطار الأرض ، أن يخطب له وينادي بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة .

ولاينبغي أن يظن بالامام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه ، وإن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير [1].

كذلك وجه الامام الغزالي خطاباً إلى يوسف بن تاشفين يفيض مدحاً وشكراً على مافعله في نصرة المسلمين في الأندلس ، وقد افتتح الخطاب بلقب من المستغرب كل الاستغراب أن يطلقه الغزالي نفسه على يوسف وهو : أمير المؤمنين [2] . وهذا ولاشك خطأ من النساخ ، لأن الغزالي نفسه يلقب يوسف في نفس الرسالة بلقب ظهير أمير المؤمنين [3] . وواضح كل الوضوح من الرسالة أن الغزالي لايلقبه قطعاً بأمير المؤمنين وإنما أمير المؤمنين الخليفة العباسي ويوسف أحد ولاته . ويبدو لنا أن أصل اللقب هو أمير المسلمين ، ولكن حصل خطأ أو التباس أدى إلى هذا . ويظهر أن سمعة يوسف وماقام به من أعمال في شمالي إفريقية والأندلس قد انتشرت في أرجاء العالم الاسلامي حتى وردت العراق وبغداد ، فيذكر الغزالي : ولقد استطارت في الآفاق محامدُ سيره ومحاسن أخلاقه على الاجمال [4] . بعد ذلك ورد إلى العراق رسول يوسف وهو الفقيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي فأحسن نشر مناقب يوسف ومنجزاته ، وحدث القوم عن جهاده في نشر الاسلام في شمالي إفريقية ، وعدله في

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر ١/٥٣٠ - ٥٣٣ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .

الرعية وحالة الأندلس قبل معركة الزلاقة واستنجاد القوم بيوسف ونجدته إياهم وهزيمة الاسبان ، ثم ماحدث بعد ذلك من تخاذل القوم وكيف اضطر يوسف إلى أن يعبر الأندلس مجدداً ، وأن ينهي حكم ملوك الطوائف وأن يضم الأندلس إلى مملكته ، وباشر الجهاد بنفسه وجيشه في الأندلس نجد ذلك كله مبسوطاً في رسالة الغزالي ليوسف ، مع إعجاب شديد به وبرسوله الذكي الألمعي ، ودعاء للأمير أن يوفقه الله تعالى ويسدد خطاه ، ويختم رسالته بقوله : ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده تخليداً لاينقطع أبد الدهر . ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء ، وليس كذلك ، فإن ملك الدنيا إذا تزين بالعدل فهو شبكة الآخرة ، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه ، ومن ملك الى ملك أجل وأرفع منه [1] ...

ولما توطد الملك ليوسف وشعر باقتراب أجله بايع ابنه علياً بولاية العهد من بعده وأصدر عهداً وكتاب تولية بذلك سنة ٤٩٦ هـ ، وهو يعلن أنه ، في اختيار ولده لهذا المنصب من بعده ، لم يأل جهداً ولا نصيحة لله ورسوله في هذا الاختيار واستنصح أولي الحل والعقد من قومه ، فكلهم أشار عليه بولده علي أن يكون ولي عهده وأميراً للمسلمين من بعده ، لذلك ولاه ولاية عهده ، وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع ، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة [2] . ثم يوصيه بعد ذلك بحسن الدفاع عن المظلومين ، وأن يداوم الجهاد وأن يحسن الدفاع عن العباد والبلاد . ثم يذكر أنه دعا لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين فلبوا مسرعين

---

(١) نفس المصدر .

(٢) القلقشندي ، المصدر المذكور آنفاً ١٠ ، ١٦١ - ١٦٢ .

وأتوا مهطعين وأعطوا صفقة أيمانهم متبرعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة والتزام سنن الجماعة [1] ...

وبعد صدور هذا التقليد أصدر يوسف كتاباً إلى جميع ولاته يعلن توليته لعهده من بعده لولده علي .

ويعيد في الكتاب ماسبق أن ذكره في التقليد من ضرورة الولاية بالعهد وعدم ترك الأمر فوضى ، وأن هذا الأمر مسؤولية على الحاكم ، وأن يوسف استشار واستخار ، ثم اختار ولده علياً ، وإن علياً أهل لملء هذا المنصب ، وأن أمير المسلمين استدعاه اليه مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين الشروط فقبل ورضي [2] ...

٢ ـ علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ/١١٠٧ ـ ١١٤٣ م .

ولقد افتتح علي عهده بأن أرسل الى الخليفة العباسي المستظهر بالله يخبره باستلامه إمرة المسلمين ويجدد ولاءه له ويطلب تقليداً ، وكان الخليفة عند حسن الظن به فأرسل له تقليداً مختصراً جعل ولايته شرعية [3] .

ولقد امتازعهد علي بعمليات عسكرية في الأندلس كان التوفيق حليفه في أول الأمر ، ولكن قلب الحظ له وللمسلمين ظهر المجن ، وحدثت بعهده كوارث حقيقية وسقطت بيد الاسبان معاقل رئيسية مثل سرقسطة وغيرها .

فقد امتلأ المرابطون فخراً لما تمكنوا من احتلال قلعة شنترين في بلاد البرتغال ، وهي من أمنع القلاع وأقواها ، ونجد ذلك الفخر بارزاً في رسالة قائد جيش المرابطين سير بن أبي بكر بن تاشفين إلى علي بن

---

(١) نفس المصدر .

(٢) حركات ، المصدر المذكور آنفاً ١/٢٠٣ .

(٣) نفس المصدر ١/٢٠٢ .

يوسف بن تاشفين عن القلعة وكيفية احتلالها : ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع المنيفة المناصب على القاع ، قد استشرى داؤها وأعيا دواؤها ، استخرنا الله تعالى على صمدها ، وضرعنا اليه في تسهيل قصدها [1] ... فقصدنا اليها وهجمنا هجوم الردى عليها ، في وقت انسدت فيه أبواب السبل ، وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل [2] ... ولما ضمهم لضيق ولاجه الحصار ، وغشيهم بتفريق أمواجه البوار ، ... اختاروا الدنية على المنية ورضوا بالاستسلام للعبودية وإسلام الأهل والذرية [3] . وهذه القلعة التي انتهينا الى قرارها واستولينا على أقطارها أرحب المدن أمداً للعيون وأخصبها بلداً على السنين [4] .

ولكن هذا العهد القصير من الانتصارات انتهى ليحل محله عهد أسود من الانهزامات وتسليم المدن ، وكان السبب الأكبر في ذلك سوء قيادة القوة المرابطيـــة وتخاذل أفرادها أكثر مما هو قلة في عدد أفرادها أو سوء تجهيزها . فقد هاجم الفونسو المحارب مدينة سرقسطة ، وحاول إنجادها أخو أمير المسلمين حاكم الاندلس وقائد جيشها الأمير أبو طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ، ولكنه لم يفعل شيئاً وهاب لقاء العدو ونكص عن حربه ، وتخلى عن البلدة وتركها لمصيرها المؤلم . ولقد حاصر العدو سرقسطة ، وأرسل أهلها وقاضيها وأعيانها رسالة تهز الوجدان وتذيب الصخر يعلنون ولاءهم وطاعتهم ويطلبون حمايتهم وانقاذهم ولكن ذهبت تلك الرسالة صرخة في واد .

---

(١) المراكشي ، عبد الواحد . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، لجنة إحياء التراث الاسلامي ، ١٩٦٣م ٢٢٩ - ٢٣٢

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

فقد خاطبت الرسالة الأمير أجمل مخاطبة ، واعترف القوم بطاعته واستنجدوه على أعداء الله . ثم ينتقل القاضي والجماعة الى ذكر حالهم : فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جل الغز والخطب ، وأهلنا لهلاك والعطب ، فياغوثاه ثم ياغوثاه الى الله [1] ... ويالله ويالاسلام ، لقد انتهك حماه وفضت عراه ... وياحسرتا على حفرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ماعمرت بالايمان ، وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ترجع مراتع الصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الاوثان [2] ... وياويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن العظيم تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ... ثم ياحسرتاه على نسوة مكنونات عذارى يعدن في أوثاق الأسارى [3] ... فإلى الله بك المشتكا ، ثم الى رسوله المصطفى ، ثم الى ولي عهد أمير المسلمين المرتضى [4] ... ثم يذكرون له خيبتهم الكبرى لما قدم بعساكره التي ملأتهم فخاراً وأملاً ، ثم انثنى دون حرب ولامايحزنون : ... فما أوليتنا غناء بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء بل أدواء [5] ... ثم يذكر له نتائج نكوصه هذا : ... بل أذلت الاسلام والمسلمين واجترأت فضيحة الدنيا والدين ، فيالله ويالاسلام لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام اذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح إحجام [6] ... ثم ينتقل القاضي الشجاع الى تحذير المرابطين بأنه ان حم

---

(١) عنان ، المصدر المذكور آنفاً ، ١/٥٣٨ - ٥٤١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .
(٥) نفس المصدر .
(٦) نفس المصدر .

القضاء على سرقسطة فإنهم سيجلون عن الأندلس كلها : ... أتحسبون يامعشر المرابطين ... ان سبق على سرقسطة القدر . . . أنكم تبلغون بعدها ريقاً وتجدون في سائر بلاد الأندلس ـ عصمها الله ـ مسلكاً من النجاة وطريقاً ؟ كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها داراً فداراً . . .[1] ثم يختم كتابه هذا بتحميل الأمير تميم المسؤولية عند الله وعند المسلمين : ولن يسعك عند الله ولاعند مؤمن عذر في التأخر والأرعوا ، عن مناجزة الكفار والأعدا ...[2] ويقول له : ومهما تأخرتم عن نصرتنا فالله ولي الثأر لنا منكم ورب الانتقام ، وقد بريتم باسلامنا للأعداء من نصر الاسلام ...[3] .

ولقد تركت سرقسطة لمصيرها الرهيب فاحتلها الفونسو المحارب ، ولقد كان لسقوطها رد فعل في مجال آخر ، ذلك أن خبر سرقسطة وكيفية سقوطها وصل الى علي بن تاشفين فتألم لذلك كل الألم ووجه الى جيش بلنسية الذي نكل عن نجدة سرقسطة رسالة قاسية كل القسوة كلها تقريع وإهانة وتوبيخ على مافعلوه . ولكن هل يفيد هذا الشيء وحده دون عقوبة زاجرة تمنع أمثال هذا العمل وتعاقب الجناة والمقصرين الذين تسببوا في حدوث ماحدث ؟ وهل اتخذت الترتيبات اللازمة التي تمنع تكرار ماحدث ؟! فقد افتتح رسالته لهم بهذه الجملة الرهيبة : يافرقة خبثت سرايرها وانتكثت مرايرها[4] ... فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم حين ركبتموها جلواء عارية[5] ... أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة الى

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر ١/٥٤٥ ـ ٥٤٦ .
(٥) نفس المصدر .

ما يريعكم الناقد ويردكم الفارس الواحد [1] . ثم ينتقل الى تهديدهم بالقتل ان عادوا للفرار : وأيم الله نقسم إنذاراً بكم وإعذاراً لكم : لنوردن الفار منكم الزحف ماعافه من موارد التلف ، ولنتجاوزن السوط الى السيف [2] ...

ولكن ذلك لم يجد نفعاً لأن عوامل الترف بدأت تعمل عملها في النفوس وأحب القوم الدنيا وفضلوها على الاخرى ، لذلك نرى المرابطين يصابون بهزيمة أخرى شنيعة في معركة القلعة سنة ٥٢٣ هـ ، وأدت هذه الهزيمة الى مراسلات مريرة بين أمير المسلمين وقواد جيشه . وقد قرعهم مرة ثانية على هذه الهزيمة ووصفهم بأنهم أشجع الناس أقفاء وظهـــوراً وأجبنهم وجوهاً ونحوراً [3] ...

ولقد أحدثت هذه الهزائم ذعراً مميتاً لدى سكان الأندلس ، ولاسيما في الثغور ، حتى أن سكان بلنسية خافوا أن يتخلى المرابطون عنهم كما تخلوا عن أهل سرقسطة ، فأرسلوا رسالة استغاثة إلى سلطان المرابطين يناشدونه الله والاسلام ألا يتخلى عنهم ، ويصفون له ما أصابهم من ذعر وخوف لما رأوا جيوش المرابطين تولى الأدبار أمام الفونسو المحارب . وقد أجابهم علي بن يوسف جواباً لطيفاً مطمئناً إياهم إلا أنه لن يتركهم وحدهم وأنه سيدافع عنهم : ... وبعد فإنا لاندعكم بحـــول الله لضياع ، ولا نألوكم إلا اهتبالاً نذهب بمشيئة الله مانالكم من توقع وارتياع [4] . ثم

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ١/٥٤١ - ٥٤٢ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر ١/٥٤٣ .

يخبرهم أنه أصدر أوامره الى جميع ولاة الأندلس بضرورة إمداد بلنسية بالأقوات والأمداد وأنه لن ينساهم ولايزالون من باله [1] .

ولاينسى في هـذه الرسالة أن ينحى باللائمة على أفراد جيشه ويذكر أنه ذكرهم ووعظهم فما ازدادوا الا جبناً ولم تنجع فيهم الموعظة ولانفعتهم الذكرى [2] .

ولم يتكشف بقية حكام المرابطين عن أي أصالة أو مقـدرة سياسية أو عسكرية ، وانما انصرفوا الى الترف ، وشغلوا أنفسهم بتوافه كثيرة وانصرفوا عن العدوين الخارجي الاسبان ، والداخلي الموحدين الذين تناوشوهم في الداخل والخارج حتى أتتهم الضربة المميته من الموحدين بزعامة عبـد المؤمن الذي ورث زعامة الحركة الموحدية بعد وفاة مؤسسها المهـدي بن تومرت ، وأصبح قائد الموحدين ، وتمكن من القضاء على المرابطـين والحلول محلهم وتأسيس دولة جديدة في شمالي افريقية والأنـدلس عرفت باسم الدولة الموحدية .

هـ ـ الموحدون ٥١٥ ـ ٦٦٨ هـ/ ١١٢١ ـ ١٢٦٩ م .

والحركة الموحدية حركة نبعت في السوس الأقصى من المغرب الأقصى قادهـا شخص تسمى باسم المهدي وزعم لنفسه النسب القرشي ، وأنشأ مدرسة وأتباعاً . وأوجد لها جهازاً متقناً لحماية الدعوة ونشرها ، وتمكن بذكائـه وصرامتـه وشجاعته ، واستفادته من كل الظروف التي أحاطت بالمرابطين أن يثبت أقدام الدعوة الموحدية ، وأن يترك لخليفته من بعده

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

عبد المؤمن أن يصل بالحركة الى نهايتها المحتومة المعروفة وهي القضاء على المرابطين والحلول محلهم في شمالي افريقية والأندلس .

ومبدأ الموحدين ، كما هو ظاهر من اسمهم ، التوحيد الخالص لله تعالى ، وذلك واضح كل الوضوح في صيغة التوحيد التي وضعها المهدي والتي كانت الدستور الذي سار عليه أوائل الموحدين وبنيت عليه الدعوة الموحدية : لا اله الا الذي دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات بأنه جل وعلا وجب عليه الوجود على الاطلاق ، من غير تقييد ولاتخصيص بزمام ولامكان ، ولاجهة ولاحد ، ولاجنس ولاصورة ولاشكل [1] ...

ولقد وسم الموحدون المرابطين ونبذوهم باسم المجسمين ، لأن في رأيهم ، وهو الرأي الإسلامي الصواب ، أن الله تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات ، فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ، ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ، ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن ، فمن مات على ذلك فهو مخلد في النار [2] . وفي رأيهم وزعمهم أن المرابطين يعتقدون بوجود مكان لله تعالى ولذلك دعوهم بالمجسمين ، ومن هنا نستطيع تفسير العداء المرير الذي كنوه لهم . ولم يهدأ هذا الحقد وهذا العداء حتى زال المرابطون . كذلك هذا يفسر قسوة الموحدين على أعدائهم ومخالفيهم من المسلمين ، لأنهم اعتبروهم وثنيين ، وأهل الكتاب أولى بالرحمة والرأفة من الوثنيين والمجسمين .

ولقد بذر البذور الأولى المهدي ثم تبعه تلميذه وصفيه عبد المؤمن الذي قضى على المرابطين ووطد دعائم الدولة الموحدية في المغرب ، ثم عبر

---

(١) نفس المصدر ، ١/٥٥١ .

(٢) علام ، عبد الله علي . الدعوة الموحدية بالمغرب . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦٤ م ، ص ٣٤٩ - ٣٥٥ .

الى الاندلس ورفع علم الجهاد ضد المرابطين وضد الاسبان ، وتمكن من احتلال قسم كبير من إسبانيا الاسلامية .ثم تبعه ابنه أبو يعقوب يوسف الاول الذي وطد الدولة الموحدية وقضى على عـــدد كبير من الثورات الداخلية ، وانتصر على الاسبان في عدد من المعارك الهامة . ولقد بلغت دولة الموحدين ذروتها زمن المنصور الموحدي المعاصر لصلاح الدين الأيوبي والذي انتصر انتصاره العظيم على الاسبان في معركة الارك وطار صيتـه في كل أرجاء العالم الاسلامي حتى أن صلاح الدين رجا نصره ضد الصليبيين في بلاد الشام وأرسل له رسالة مع مبعوث خاص يستنجده ويستمده العون ضد الصليبيين .

ولكن هذا البناء الشامخ مالبث أن انهار دفعة واحدة في عهد ابنه الناصر الذي أصيب بهزيمة ماحقة أمام الاسبان بمعركة العقاب التاريخيـة التي كانت المفتاح الذي فتح أبواب إسبانيا الاسلامية أمام الاسبان ، فلم تلبث حواضر الاندلس الكبرى كبلنسية واشبيلية وقرطبة أن سقطت بيد الاسبان ، وقامت ثورة عارمة فيما تبقى من الاندلس ضد الموحدين فأخرجوا منها وتشكلت مملكة غرناطة التي لبثت منارة للحضارة الاسلاميـة في تلك البقعة من الارض أكثر من قرنين من الزمان بعد سقوط الموحدين . كما وأن الموحدين ضعفوا كل الضعف في المغرب موطنهم الاصلي وقضي عليهم وحل محلهم بنو مرين .

ولقـد قامت الحركة الموحـدية أصلاً لهدفين رئيسيين ؛ القضاء على الفساد والانحراف الذي أصاب الحركة المرابطية وتوحيد القبائل كلها تحت هذا الهدف الواضح الصريح ، ورفع راية الجهاد خفاقـــة ، ليس لحماية ماتبقى من بلاد المسلمين في الاندلس فحسب ، بل لاسترجاع ما ضاع منها . وعلى الرغم من النجاح الجزئي الذي حققته الحركة أول أمرها في تحقيق

هذين الهدفين ، الا أنها لم تلبث أن سقطت في وهدة الفساد الداخلي والترف والصراع القبلي : وسجل التاريخ أن القسم الاكبر من اسبانيا الاسلامية سقط بيد الاسبان في عهد هذه الاسرة الحاكمة .

١ – المهدي بن تومرت ٥١٥ – ٥٢٤ هـ/١١٢١ – ١١٣٠ م .

المهدي شخصية قوية ذكية عرف كيف يستغل الامكانات المتوفرة لديه وعرف كيف يستغل الظروف المحيطة به وأخطاء المرابطين حتى حقق نجاحه المنقطع النظير . وقد أحسن انتقاء تلاميذه ومريديه بشكل جيد وخاصة تلميذه الأثير لديه وخليفته من بعده عبد المؤمن الذي تعهده بعنايته وأعده إعداداً جيداً لاستلام الحركة الموحدية من بعده . وهو الذي وضع للحركة الموحدية مبادئها العامة وعقائدها ونظمها مما مكنها أن تقارع المرابطين وأن تتغلب عليهم . وقد ادعى أنه المهدي المنتظر ، وأنه من سلالة الرسول عليه السلام واسمه كاسمه ومكانه المغرب الاقصى وأنه بعث ليملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً (١) . ولما توطدت دعوته ووثق من نفسه وقوته وأرسل رسالة الى سلطان المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين ينذره بالحرب وأن المرابطين كفار دماؤهم وأموالهم حلال (٢) ...

وقد خاض المهدي عدداً كبيراً من المعارك ضد المرابطين ، انتصر في أكثرها ، ولكن أصابه الخذلان في بعضها ، وتدل رسائله التي وجهها الى أتباعه يحرضهم على قتال المرابطين على ثقة بالنفس عظيمة ، وعلى ايمان بالمبدأ والعقيدة لايتزعزع ، وعلى مقدرة عالية وكفاءة رفيعة في فن قيادة الرجال .

---

(١) ابن القطان . جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان . تحقيق محمود علي مكي . الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . ص ٥٧ .

(٢) علام . المصدر المذكور آنفاً ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .

وعنده أن جميع مخاليفه كفار مجسمون ، وأن واجب الموحدين دعوتهم الى التوبة والانابة ، فإن قبلوا : فخلوا سبيلهم ، وهم اخوانكم في دين الله وسنة رسوله ، وان عاندوا الحق وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم ... وكل من قتل من الكفرة والمجسمين فهو مخلد في نار جهنم وبئس المهاد . وكل من قتل من المؤمنين فهو من أهل الجنة [1] .

ولما أحس بدنو أجله أوصى أتباعه وصية شاملة ، وبين لهم فضل الله عليهم الذي قيضه لهم فهداهم به الى التوحيد الخالص وأزال به البدع والمنكرات ، وأن الله تعالى سيورث الموحدين أرض المرابطين وسلطانهم فعليهم أن يجددوا لله شكراً ، ثم يحذرهم الفرقة والخلاف ويطلب منهم أن يمزجوا الرأفة بالغلظة واللين بالعنف . ثم يخبرهم أنه استخلف عليهم من بعده رجلاً منهم هو عبد المؤمن بعد أن بلا أحواله واختبره ، فعليهم أن يسمعوا له ويطيعوه مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدل أو نكص على عقبيه أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدين ـ أعزهم الله ـ بركة وخير كثير [2] .

٢ ـ عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ ـ ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ ـ ١١٦٣ م .

وضع المهدي أساس الدولة الموحدية ، وأكمل البناء عبد المؤمن وأعلاه حتى حقق أحلام المهدي في القضاء على المرابطين ودولتهم ، ولكن ذلك تم بعد حروب كثيرة ومعارك ضارية ودماء غزيرة أهرقت بغير ماسبب وقد امتاز عبد المؤمن بقسوته الشديدة في معاملة أعدائه ، وفي صرامته

---

(١) نفس المصدر ، ٣٤٩ ـ ٣٥٥ .

(٢) المراكشي . المصدر المذكور آنفاً . ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

وشدته في تطبيق مبادىء الموحدين . كما وأنه عبر البحر إلى الأندلس وبدأ الجهاد ضد الإسبان ، ولكن لم يصف له حكم الأندلس . وقد اعتقد هو واعتقد خلفاؤه من بعده أن المهدي معصوم عن الخطأ ، وقد ورد ذلك في كثير من رسائلهم ؛ وهذا ولاشك انحراف خطير في عقيدتهم عن العقيدة الاسلامية الحقيقية . وظل هذا الاعتقاد سائداً لديهم حتى ألغاه أحد متأخري خلفائهم وهو المأمون الموحدي (٦٢٦ ـ ٦٣٠ هـ) . كما وأن عبد المؤمن اتخذ لقب أمير المؤمنين ، وتبعه في ذلك بقية حكام الموحدين حتى زوال ملكهم . ولقد كان لعبد المؤمن شواغل ثلاث : القضاء على المرابطين نهائياً ، وقد تم له ذلك ؛ القضاء على الثوار في الأندلس وحرب الإسبان ، وهذا لم يحقق فيه إلا نجاحاً جزئياً ، توطيد أركان الدعوة الموحدية في أرجاء امبراطوريته الواسعة وحمل الكافة على السير بموجب ذلك . فأوجد نظام الطلبة والأشياخ الموحدين الذين يساعدون الحكام في تطبيق أحكام القانون ، ويقومون بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي العملية التي يسميها الموحدون التمييز أي تمييز الموحد عن المجسم .

وقد افتتح عبد المؤمن ملكه بتوجيه إنذار نهائي إلى المرابطين بضرورة الاستسلام ملأه بالوعيد والتهديد : ياعضد الفجار وعباد الفساق الأشرار فقد كاتبناكم بالبنان ، وخاطبناكم بالبيان . . . فلم تجيبوا ولا أطعتم بل تثاقلتم عن الحق وعصيتم ... وهذه خيل الله قد أظلكم وبلها وطمى عليكم سيلها ، فتأهبوا للموت [1] ... ولقد اعتصم بقايا المرابطين في السوس ،

---

(١) ابن القلانسي ، أبو يعلي حمزة ذيل تاريخ دمشق . تحقيق أمدوز ببيروت ، مكتبة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م ، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست ص٢٩٢

واصطر عبد المؤمن أن يوجه الجيوش إليهم أكثر من مرة حتى تمكن من القضاء على بقاياهم وبقايا ثوارهم في تلك المنطقة سنة ٥٤٢ هـ .

ولما استقر لعبد المؤمن الأمر في المغرب الأقصى ، بعد حروب هائلة ومعارك دموية ، بات يترقب ويتأهب للعبور من جديد إلى الأندلس للغزو والجهاد ، وأرسل إلى ابنه ووالية على أشبيلية رسالة يصف فيها حروبه في السوس ومالاقاه الموحدون من شده وقوة أعدائهم ، وكيف تغلبوا عليهم ، ويفتخر بما أنجزوا وما حققوا ، وهو يصم مخالفيه بالكفر : فأما من ظلم نفسه واعتزل الحق وأهله ، فسيذوق من العذاب الأدنى مراً ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً[1] ...

ولقد انتشر الظلم والتعسف في دولة الموحدين في الأندلس زمن عبد المؤمن ، ووصل إلى سمعه مايفعله بعضهم من ظلم الناس وعسفهم واستصفاء أموالهم واستباحة حرماتهم بل ودمائهم ؛ وهم : كما يبدو من رسالة عبد المؤمن إلى الموحدين في الأندلس ، من الطبقة الحاكمة من الموحدين . ولذلك يتوجه إليها عبد المؤمن بالوعيد والإعذار والإنذار ، ويمزج وعظاً بشدة ويحذرهم عاقبة البغي والعدوان ضد الآمنين ، ويقسم أنه لوعلم الفاعل لمسه من أليم عقابه مايجعله عبرة للمعتبرين . كذلك يحذر من المكوس وأخذها وجبايتها كل التحذير ، ويبرأ إلى الله مما يعملون ويستعيذ به من شر مايتصرفون . بعد ذلك يتوجه بخطابه إلى الموحدين ، ويطلب إليهم ألا يكلوا تنفيذ الأحكام إلى أحد سواهم ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولاتبعدوا بغلظ الحجاب عن قصدكم من الخير ونواياكم ،

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك . تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين . تحقيق عبد الهادي التازي بيروت ، دار الاندلس ، ١٩٦٤ م . ٢/١٣١ - ١٣٥

وباشروا الأحكام هناك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا في جانب المسلمين من كل خفيف المقال كثير الاضطراب في الباطن والانتقال[1] . ثم يطلب إلى الحكام والموحدين أن يبحثوا عمن باشر مثل هذه الأمور بحثاً دقيقاً ، وأن يرفعوا أمرهم إليه حتى ينالهم العقاب الرادع . كذلك يطلب إليهم ألا ينفذوا حكماً بالإعدام بأي فرد كان ، دون الرجوع إلى الخليفة شخصياً في ذلك مهما يكن ذنبه ، حتى يدرس الخليفة قضيته ويصدر حكمه فيها . ويطلب إليهم أيضاً البحث عن الخمور وإهراقها ومنع صنعها ومعاقبة معاقريها . ثم يطلب إليهم التقيد التام الشامل الكامل الصارم بما ورد في تعاليمه في رسالته هذه الموجهة إليهم ، وأن يطلعوا الجمهور عليها وأن يعمموها على جميع مراكز الادارة ، وأن يأخذوا أنفسهم والآخرين بها ؛ ويحذرهم أنه بمرصد لما يكون منهم ، وأنه سيقابل بالواجب مايصدر عن الجميع[2] .

ولقد حاول عبد المؤمن جعل ولده محمداً ولياً لعهده ووجه الرسائل لقبائل الموحدين وزعمائهم في هذا الشأن ، ولكن الأمر لم يتم لمحمد وإنما تم لأخيه أبي يعقوب يوسف الأول ، وكان ذلك من حسن حظ الموحدين

٣ ـ أبو يعقوب يوسف الأول بن عبد المؤمن ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ ـ ١١٨٤ م .

ولقد افتتح أبو يعقوب ملكه برسالة وجهها إلى أخيه أبي سعيد واليه

---

(١) علام ، عبد الله علي . الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ م ص ٣٩٤ ـ ٤٠٥ .

(٢) نفس المصدر .

في قرطبة ، تتضمن طائفة من النصائح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ يبدو أن عبد المؤمن لم يتمكن من استئصال دابر الفساد والرشوة التي تفشت بين حكام الموحدين في الأندلس ، ولذلك اضطر الخليفة الجديد إلى إعادة تذكيرهم بما ذكرهم به أبوه عبد المؤمن من قبل بوجوب العدل وتحرى الصدق وتجنب الظلم . وهو يبدأ رسالته بالرضا عن الامام المعصوم المهدي المعلوم[1] ، ثم يوالي الدعاء لأمير المومنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله[2] . بعد ذلك يذكرهم بأهمية التقوى في الاسلام وأن البناء الموحدي كله قائم على التقوى ، لذلك يطلب إلى الجميع ألا يحكموا في الدماء من تلقائهم ، وأنه لابد من رفع هذه القضايا إلى الخليفة ليفصل بها بنفسه ، ثم يذكرهم بضرورة العدل والاستقصاء واتباع الشرع الشريف فيما دون ذلك من الأحكام كالقطع والأرش والجلد وماشابهه ، ويملأ رسالته وعظاً وتذكيراً[3] .

ولقد ووجه أبو يعقوب بفتنتين كبيرتين إحداهما في الأندلس والثانية في المغرب الأقصى وتمكن من التغلب عليهما .

فقد ثار ابن مرادنيش من بقايا المرابطين في المنطقة الشرقية من الأندلس وتحالف مع الاسبان ضد الموحدين وجرت بين الطرفين معركة الجلاب سنة ٥٦٠ هـ وانتصر فيها الموحدون على ابن مردانيش وحلفائه الاسبان ، فوجه أخو الخليفة في الأندلس رسالة تفيض سروراً وبشراً وانشراحاً . وقد ملئت بالمبالغات التي لاداعي لها لأن التغلب ، في معركة ، على ثائر ، دون إنهاء ثورته أو قتله ، لايستحق أن يوصف بأنه :

---

(١) ابن صاحب الصلاة . المصدر المذكور آنفاً . ٢/٣٠٢ - ٣٠٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب[1]

وأنه : كيوم ذي قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم[2] فإذا كان هذا شعور القوم لدى انتصارهم في معركة جانبية ، فكيف يكون شعورهم لو انتصروا في معركة حاسمة ؟ وهذا وحده كاف للدلالة على ضعف تفكير وتفاهة مرسلي مثل هذه الرسائل .

كذلك ثار ثائر في أقصى بلاد السوس اسمه سبع بن منخفاد ، ويبدو أن الثورة كانت تهديداً خطيراً لسلطان الموحدين حتى اضطر الخليفة أن يركب بنفسه وجنده لإخمادها ، وتمكن بعد حرب ضروس من قتل زعيمها وإخماد أوار الثورة ، والقضاء على الفتنة .

فقد وجهت الرسالة إلى طلبة الموحدين ، وأشياخهم ، وأعيانهم في قرطبة تخبرهم بصنع الله العظيم في القضاء على هذه الفتنة ، وتصف الحركة إلى ميدان المعركة ، والطريق إليها ، وتصور المعركة أنها معركة بين الشرك والتوحيد ، والكفر والايمان ، وأن الله تعالى نصر حزبه ، وأعز جنده ، ويظهر أنها كانت حركة خطيرة ، حتى اهتم بها الخليفة كل هذا الاهتمام ، وطلب إشاعة هذا الخبر في كل مكان : ... وعرفناكم بذلك مشروحاً لتحمدوا الله تعالى عليه ، وتأخذوا بحظكم منه ، وتعطوه حقه من الاشاعة ، وتوفوه واجبه من النشر والاذاعة ، فقد انحسمت به أدواء كانت في حد الإعضال ، وأخمدت نيران من الفتن في اضطرام واشتعال ، وستكون آياتها منبهة ، وعبرها مذكرة ، يصلح بها الفاسد ويستقيم بها المائل[3] ...

---

(١) نفس المصدر ٢/٢٧٦ - ٢٨٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ٢/٣١٠ - ٣٢١

ويبدو أن بيعة أهل الأندلس ، أو على الأقل ، بيعة أهل أشبيلية لأبي يعقوب بأمرة المؤمنين قد تأخرت بعض الوقت لسبب ما ، فإنه تولى الخلافة سنة ٥٥٨ هـ ولم يبايعه أهل إشبيلية إلا سنة ٥٦٣ هـ ، ولا ندري كيف نفسر ذلك . ولكن الوارد في نص البيعة هو تجديد البيعة : ... على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، خلد الله ملكهم وأعز نصرهم (١) ... فبايعنا على السمع والطاعة بيعة إيمان وأمانة ، وعدل وعبادة ، والتزمناها في العسر واليسر والمنشط والمكره ، واعتقدناها عصمة ديننا وذخر معادنا (٢) ... وقد فعل نفس الشيء أهل غرناطة وأرسلوا بيعتهم لأبي يعقوب يعلنون أنها بيعة رضوانية وأنهم بايعوه بيعة إيمان وأمانة في السراء والضراء (٣) .

ولما تم لأبي يعقوب القضاء على فتنة غمارة ، وتوطد مركزه في المغرب والأندلس قرر الالتفات للمهمة الكبرى وهي الجهاد في الأندلس ، ورد عادية الاسبان عنها . وقد أرسل بهذا المعنى رسالة إلى واليه على غرناطة يخبره بعزمه على الحضور بنفسه إلى الجزيرة للجهاد ويخبره أنه أرسل أخاه بجيش قوي كمقدمة لتحقيق هذا الهدف : وإن أمر تلكم الجزيرة ، مهدها الله ، لمن أكد ماتوجه إليه نظرنا ، وتوكل به اعتناؤنا واشتغل به فكرنا لمصاقبة الأعداء الروميين ، والمجسمين لبلاد الموحدين بها ، وإلحاحهم على جنباتها (٤) ... وقد اتفقنا في هذه الأيام على أن يتوجه إليها أخونا أبو إسحاق . . في عسكر مبارك ... ليكون بقرطبة ... ورجونا من

---

(١) نفس المصدر ٢/٣٤٠ - ٣٤١

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ٢/٣٤٢ - ٣٤٤

(٤) نفس المصدر ٢/٣٥٤ - ٣٥٦ .

تعاونه مع إخوانه الذين بإشبيلية ... أن تظهر عليهم بركة سيدنا أمير المؤمنين وآثارهم (١) ...

ولكن أحوال المغرب المضطربة منعت الخليفة من الجواز المباشر إلى الأندلس ، على الرغم من أنه فعل ذلك فيما بعد ، وقد انتصرت جيوشه في الأندلس في عدد من المعارك ضد الاسبان ، وانضم إلى صفوف الموحدين أحد بقايا زعماء المرابطين إبراهيم بن همشك ، بناء على وعد بالعفو وعده إياه الخليفة . وإذا كان أبو يعقوب قد عجز عن تحقيق إنجاز ضخم ضد الاسبان في الأندلس فقد ترك هذه المهمة لابنه وخليفته المنصور .

٤ ـ أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/١١٨٤ ـ ١١٩٩ م .

أبو يوسف هو أول من تلقب من خلفاء الموحدين بلقب فاختار لقب المنصور ، وبلغت في عهده دولة الموحدين ذروتها ، فقد تمكن من تحقيق إنجاز ضخم في تاريخ الأندلس بانتصاره العظيم على الاسبان في معركة الأرك المشهورة . ويبدو أن هذا النصر الذي حازه أصابه بالغرور ، وأعتقد أنه يستحق إمامة المسلمين في كل مكان وخلافتهم ، ولذلك لم يتنازل بالرد على صلاح الدين الأيوبي رحمه الله عندما أرسل إليه رسالة مع رسول يطلب منه أن يمد المسلمين في بلاد الشام في صراعهم ضد الصليبيين ، واحتج بأن صلاح الدين لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين . ولكنا نعتقد أن المنصور لم يكن قادراً على أي عمل من شأنه مساعدة مسلمي الشام ضد الصليبيين ولولقبه صلاح الدين بالخليفة وأمير المؤمنين وغير ذلك من الألقاب الفارغة ، وذلك بسبب عجزه عن الإمداد ، ولكنه غطى عجزه وعزوره بهذا السبب الواهي ، ناسياً أن صلاح الدين بطل عظيم من أبطال الاسلام

---

(١) نفس المصدر .

وأن انجازاته أعظم بكثير من إنجازات المنصور ، وأن صلاح الدين لايمكن أن ينسلخ عن ولائه للخليفة العباسي من أجل الخليفة الموحدي .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا لا يقدح في المنصور ومقدرته العسكرية والتنظيمية ، وإنجازه الضخم في التغلب على عدو رهيب كالإسبان ، كما وأن رغبته في الجهاد كانت ملتهبة ، وكان مخلصاً في نواياه ، وكان شخصاً مثقفاً آوى إليه ابن الطفيل وابن رشد . ولم يطل عهده ، وذلك لأن جسمه كان ضعيفاً وتواترت عليه العلل حتى قضى نحبه بعد فترة ولاية لم تستمر أكثر من خمس عشرة سنة .

ويدل نص البيعة التي بايع بها الناس المنصور على رغبة في التشبه برسول الله ، فقد ذكرت أنهم يبايعونه على مابايع به أصحاب رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر ، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين ... ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وألا يحتجب دونكم [1] .

ولقد اقترن اسم المنصور بمعركة الأرك الشهيرة التي حطم بها قوى الأذفونش وأوقف المد الاسباني ولو إلى فترة . فقد استغل الأذفونش فرصة انشغال الخليفة بمشاكل المغرب فأرسل له رسالة مليئة بالتهديد ، والتهكم والتحدي : وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً . ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لاتستطيعون دفاعاً ولاتملكون امتناعاً ... وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك

---

(1) حركات . المصدر المذكور آنفاً ١/٣٢٩

عاماً بعد عام ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى . فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك[1] . ثم يقترح عليه ، زيادة في التهكم ، أن يرسل إليه المراكب لتنقله إلى المغرب ليحارب المنصور هناك .

فلما وصل هذا الخطاب إلى المنصور أجابه على ذلك بالآية الكريمة (إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون) ثم أضاف : الجواب ماترى لاما تسمع[2] .

ولعل هذه الرسالة كانت حافزاً للمنصور الذي حشد قواه ، واصطدم مع قوى الأدفونش ٥٩١ هـ في معركة الأرك . وقبل المعركة مباشرة أرسل الخليفة منادياً ينادي بالجند : إن أمير المؤمنين يطلب أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم وأن يخلصوا نياتهم له[3] . فبكى الناس وصاحوا من جانبهم نطلب الغفران من الخليفة وأنهم بيمن نيته ، وصدق طويته يرجون الخير من الرحمن[4] .

ولقد كانت نتيجة هذه النفوس الطيبة في تلك الساعة الحاسمة نصراً رائعاً على الأعداء .

ولم تطل حياة المنصور بعد هذا النصر العظيم ، إذ تعاورت عليه العلل والأمراض حتى أنهكته . ولما شعر بدنو أجله جمع أشياخ الموحدين ورؤساء البلاد ، ونعى لهم نفسه ، وهم من جهتهم أعادوا توكيد البيعة بولاية العهد لولده الأمير عبد الله . ثم أوصى المنصور الحضور بالسادات ،

---

(١) ابن خلكان . المصدر المذكور آنفاً ٦/٦ ـ ٧

(٢) نفس المصدر .

(٣) عنان . المصدر المذكور آنفاً . ٢/٢٠٣

(٤) نفس المصدر .

وبعض الأشياخ . ثم قال الخليفة للمنصور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع :

أوصيكم بتقوى الله ، وبالأيتام ، واليتيمة .

فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد .

ياسيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟

فقال : اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكانها المسلمون . وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوفير رعيها ، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها (١) ...

رحم الله المنصور الموحدي ، لكأنه استشف حجب الغيب ، وأدرك مايخبئه القدر لتلك البقعة المنكودة من بلاد الاسلام والمسلمين ، فأراد بوصيته هذه أن ينبه الغافلين ويشحذ الهمم للخطر الداهم ، ولكن لا راد لما أراد الله . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

٥ ـ الناصر الموحدي أبو عبد الله محمد ٥٩٥ ـ ٦١١ هـ/١١٩٩ ـ ١٢١٣ م

كما يقرن اسم المنصور الموحدي بانتصاره العظيم في معركة الأرك ، كذلك يقرن اسم ابنه الناصر بانهزامه الفاجع البالغ الأثر في معركة العقاب التاريخية . ذلك أن إسبانيا النصرانية ، ومن ورائها البابوية وأوربا كلها ، حشدت قواها من جديد لتحطيم الاسلام في الأندلس ، واصطدم الناصر بجيوش الإسبان في معركة العقاب ، ولم يحسن الناصر القيادة ، وأساء إلى شيوخ الموحدين وزعمائهم ، فكانت النتيجة خسارة مروعة لمعركة فاصلة من معارك التاريخ ، وخلف الموحدون زهرة جيوشهم في ساحة المعركة ، وفروا هاربين إلى مأمنهم وبلادهم وتركوا الأندلس لمصيرها . ومنذ تلك المعركة بدأت حواضر الأندلس الكبرى في السقوط بيد الاسبان مثل

---

(١) نفس المصدر . ٢ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧

بلنسية وقرطبة وإشبيلية ، وماتبقى من الأندلس تمكن من طرد الموحدين وأعلن قيام مملكة غرناطة التي ظلت في الوجود حتى سنة ٨٩٧ هـ عندما احتلها الاسبان وأنهوا مجداً تليداً دام قرابة ثمانية قرون .

ولم يتميز من خلفاء الموحدين من هو جدير بالذكر ، إذ أغلبهم نكرات وحكموا مدداً قصيرة وقضوا معظم وقتهم في إخماد الثورات في بلادهم ، ولكن يجب أن نذكر الخليفة المأمون الموحدي الذي أصدر مرسوماً ألغى بموجبه عصمة المهدي ، ذلك أن أئمة الموحدين وخلفاءهم كانوا يعتقدون بعصمة مؤسس حركتهم ، وكانوا يفتتحون كتبهم بالدعاء للمهدي المعصوم الامام المعلوم ، فأصدر مرسومه وبعث به إلى الجميع وأخبرهم بمايلي : ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق وأن لامهدي إلا عيسى ... فتلك بدعة قد أزلناها ... وقد أسقطنا اسمه ولم تثبت له عصمة [١] .

كذلك يجب أن نذكر الخليفة الموحدي المرتضى الذي حكم بين سنتي ٦٤٠ و ٦٤٦ هـ لا لشيء إلا لكتابه الذي وجهه إلى البابا أنوصان الرابع. وهذا ، بحسب علمنا ومعرفتنا ، أول خليفة مسلم يرسل رسالة إلى رأس الملة المسيحية في أوربا ، والمهم في هذه الرسالة هو إصرار مرسلها على تذكير البابا بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه والد : فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، وزهتته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد [٢] .

---

(١) حركات . المصدر المذكور آنفا . ١ / ٣٢٠ - ٣٢١

(٢) عنان . المصدر آنفاً . ٢ / ٧٣٩ - ٧٤١

ومن رسالته هذه تعرف أنه كانت بينه وبين البابا مراسلات سابقة ، وأن البابا أرسل أحد كبار أساقفته إلى الموحدين ومملكتهم في مهمة من المهمات ، ونفهم من هذه الرسالة أن الموحدين كانوا يستخدمون عدداً من النصارى لديهم كمرتزقة ، وأن الخليفة كان بحاجة إلى من يوجه ولاء هؤلاء النصارى له ليخلصوا في خدمته ، وهذا في رأينا ، السبب الأهم في تراسله مع البابا ، وفي استقباله مبعوثه . وهو يخبر البابا باستقباله مبعوثه بإكرام ويقول له : ومتى سنح لكم ... أن توجهوا ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين ... من ترونه برسم مايصلحهم في دينهم ، ويجريهم على معتاد قوانينهم ، فيتخيروه من أهل الفضل الراجح ، والسمت الحسن ، وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن [1] ...

و - مملكة غرناطة وبنو حفص وبنو مرين وبنو هود ٦٢٥ - ٨٩٧ هـ/١٢٣٢ - ١٤٩٢ م .

تمكن بعض الزعماء كابن هود وابن الأحمر من إنقاذ قسم ضئيل من الأرض الأندلسية من براثن الإسبان في غمرة الهزائم القاصمة التي مني بها الموحدون ضد الاسبان ، وفي غمرة الاضطراب والفوضى اللذين شملا الامبراطورية الموحدية من أقصاها إلى أدناها ، وفي غمار الثورة العارمة التي اجتاحت الأندلس ضدهم ، وتمركزوا في بقعة صغيرة من الأرض جعلوا عاصمتها مدينة غرناطة التي قدر لها أن تبقى صامدة في وجه غزوات الاسبان لها أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، هذا وإن صمود مملكة غرناطة هذه الفترة الطويلة من الزمن في وجه قوى تفوقها ،

---

(١) نفس المصدر .

وتعمرها يعود في رأينا إلى أسباب ثلاثة : أولها الدعم غير المحدود والمطلق الذي قدمه لها بنو مرين في المغرب الأقصى بشكل خاص ، وكان ذلك من أكبر الأسباب التي مكنت غرناطة أن تقف على قدميها هذه الفترة الطويلة . وثانيها الشجاعة والذكاء اللذان امتاز بهما عدد من ملوك غرناطة سواء على الصعيد المحلي ، أم الصعيد السياسي ، أم الصعيد العسكري أمثال السلطان إسماعيل ، والسلطان محمد الرابع ، والسلطان يوسف الأول والسلطان محمد الخامس الغني بالله ، الذين تمكنوا بذكائهم وشجاعتهم ودهائهم أن يمدوا مملكتهم الصغيرة بأسباب الحياة فترة طويلة من الزمن . وثالثها الخلاف الذي كان ناشئاً بين مملكتي الإسبان الرئيستين قشتالة وأراغون ذلك الخلاف الذي كان أحد الأسباب في إطالة عمر مملكة غرناطة . ولقد استثمر ملوك غرناطة هذا الخلاف أفضل استثمار ، وأبدوا مقدرة سياسية رائعة حتى تمكنوا من الحفاظ على وطنهم في وجه أقسى عدو وأشرسه عرفه المسلمون في شبه الجزيرة الإيبرية . فلما اندمجت المملكتان الاسبانيتان في مملكة واحدة ، وضعف بنو مرين وعجزوا عن إمداد مملكة غرناطة بالقوى اللازمة ، ولما استلم العرش ملوك هزيلون ضعيفون فاسدون عاجزون أتت النهاية المحتومة لمملكة غرناطة التي سقطت بعد كفاح بطولي ملحمي أشبه بالأساطير ، وكما يسقط الفارس الشجاع المعلم عن جواده بعد حرب ضروس ضد أعداء غير متكافئين ، وبعد أن أثخن بالجراح القاتلة ، فلم يستسلم ولم يهن حتى سقط إلى الأرض ميتاً وسيفه في يده .

ولقد ثار ضد الموحدين في شرقي الأندلس ابن هود ، وأعلن خلاصه من سلطان الموحدين ، وتلقب بملك المسلمين ، وأرسل إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٣٠ هـ خطاباً يعترف بتبعيته له ويطلب تقليداً شرعياً

منه . وكان الخليفة العباسي عند حسن الظن به وأرسل لابن هود تقليداً شرعياً مزهواً ، ملأه بالثناء على عمه العباس وعلى خلفاء بني العباس وأن النبي عليه السلام بشر عمه العباس أن الخلافة في عقبه الى يوم القيامة [1] بعد ذلك ينتقل التقليد الى ذكر صفات ابن هود الخارقة ، ويلقبه مجاهد الدين . وأول هذه الصفات ولاؤه للخليفة العباسي ، ولذلك قلده الخليفة حكم بلاد الأندلس ومايجري مجراها ومايفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد تقليداً صحيحاً شرعياً [2] ثم ينتقل التقليد الى الوصايا المعروفة المألوفة في مثل هذه العهود : من تقوى الله عز وجل والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [3] ...

وان المرء ليعجب من هؤلاء القوم كيف كانوا يتمسكون بمثل هذه الأمور البسيطة التافهة ، على الرغم من معرفتهم بتفاهتها . فابن هود يعلم أن تقليد الخليفة لايقدم ولايؤخر ، وكذلك يعلم شعب الأندلس أنه لايمكن أن تأتيه مساعدة ما من الخليفة ، كما وأن الخليفة نفسه يعلم أن تقليده عبارة عن كلمات جوفاء ، والكل يعلم ذلك ، ولكن الجميع يصرون على التمسك بهذه المظاهر التي ليس لها في ميزان القوى وزن يعادل وزن جناح بعوضة . فهذا القاضي أبو المطرف يرسل رسالة ، هي عبارة عن قطعة أدبية رائعة ، إلى ابن هود يهنئه بوصول هذا التقليد العظيم وكأنما وصلته قوة ضاربة تستطيع تعديل ميزان القوى المنهار لصالح المسلمين ضد الاسبان [4] . ولكن الأمر لم يطل بابن هود ، إذ انتهى أمره وأمر

---

(١) ابن الخطيب ، المصدر المذكور آنفاً ، ٢٨٠ - ٢٨٥

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) المقري . المصدر المذكور آنفاً ١/٢٨٩-٣٠٠ .

أسرته بعد فترة ، وحل محله آل نصر ـ ويسمون أيضاً آل الأحمر ـ في حكم ماتبقى من الأندلس .

ولقد تلقب ملوك آل نصر بلقب أمير المسلمين . وقد أدركوا الوضع الصعب الذي وجدت فيه مملكتهم ، ولذلك كيفوا سياستهم الخارجية حسب الوضع الذي وجدوا فيه . فقد أقاموا علاقات ود وصداقة مع ملوك المغرب الأقصى وخاصة بني مرين . كذلك حاولوا أن يوجدوا توازناً بعلاقاتهم الخارجية بين مملكتي قشتالة وأراغون ونجحوا في ذلك إلى حد مدهش . ولقد ذكر الأستاذ المرحوم الأمير شكيب أرسلان في كتابه : **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية** أن المرحوم الحاج محمد العربي بنونة من تطوان أهداه عدداً كبيراً من الوثائق الأندلسية هي رسائل وجهها ملوك غرناطة إلى ملوك أراغون . وقد نشر الأمير شكيب أرسلان عدداً مهماً من هذه الرسائل في كتابه سالف الذكر وأثبتناها نحن في كتابنا هذا . ويذكر أن عدد الرسائل التي وصلته أكبر بكثير مما نشر ، إلا أن تقادم العهد طمس خط أكثرها ، وعبث الأرضة جعل قراءتها صعبة متعذرة ، وبعد الجهد المضني تمكن السيد محمد العربي من نسخ هذا العدد القليل من المراسلات الكثيرة التي اتضح له خطه وتسنى له ضبطه .

وكما قلنا سابقاً : أغلب هذه الوثائق رسائل وجهها ملوك غرناطة إلى ملوك أراغون ، وقليل منها يوجهه أحد وزراء سلاطين غرناطة إلى ملك أراغون أو أحد أبنائه ، كما فعل رئيس جند غرناطة عثمان بن ادريس زمن السلطان اسماعيل بن فرج عندما وجه رسالة الى ملك أراغون خايمي الثاني ، وكما فعل رضوان وزير السلطان يوسف الأول عندما وجه رسالة الى الفونسو ملك أراغون ، هذا وتنطى هذه الرسائل التي

يتوف عددها على السبعة والعشرين عهد أربعة من ملوك غرناطة هم محمد الثالث (٧٠١ - ٨٠٧) وإسماعيل الأول (٧١٣ - ٧٢٥) ، ومحمد الرابع (٧٢٥ - ٧٣٣) ، ويوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) ، يقابلهم من ملوك أراغون خايمي الثاني والفونسو الرابع ودون بترة . والغريب في الأمر أن أسماء هؤلاء الملوك ترد في هذه الرسائل بأشكال مختلفة : مثل : ذون جقمي ، دون جايم ، الفنش ، الهنشو ، بطرة ، بترة ، وهكذا .

هذا وإن أسلوب هذه الرسائل واحد وديباجتها متماثلة : تفتتح بالبسملة والصلاة على رسول الله عليه السلام ثم تنتقل الى ذكر سلطان أراغون وتحرص على ذكر ألقابه وشيء من الدعاء له ، ثم تنتقل الى ذكر اسم السلطان الغرناطي ، وأحياناً تذكر اسم البلدان التابعة له ، بعد ذلك تنتقل الرسالة الى ذكر الغرض والهدف منها : السلطان المعظم ، الملك المرفع الأدنى الأكرم ، المبرور المشكور ، الأخلص ذون جاقمي ملك أراغون وبلنسية وسردانية وقرسفة وقمط برجلونة ، وصل الله عزه بتقواه وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرم جانبه ، وشاكر مقاصده في الوفاق ومذاهبه ، وحافظ عهده عملاً بواجبه الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر . أما بعد : فإنا كتبناه اليكم ... من حمراء غرناطة ـ كلأها الله ـ وليس بفضل الله سبحانه الا الخير الأكمل واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور وعهدكم بالوفاء محفوظ ، وقصدكم في الصحبة مشكور ، ومنصبكم في ملوك النصرانية معلوم مشهور[1] ...

بعد ذلك تنتقل الرسالة الى ذكر الغرض منها . والخاتمة أيضاً موجزة

---

(١) أرسلان شكيب ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، بيروت ، مكتبة دار الحياة ٢/٢٩٠-٢٩١ .

وهي عبارة عن دعاء للملكين ثم تاريخ الرسالة : والله يقضي الخير لنا ولكم وهو سبحانه يصل اعزازكم بتقواه ويحملكم على مايحبه ويرضاه ، ويوالي لكم أسباب عنايته ويوضح لكم طريق هدايته ، والسلام يراجع سلامتكم كثيراً أثيراً . وكتب في يوم كذا من تاريخ كذا (١) .

وبعض هذه الرسائل اقتراح بعقد معاهدة صداقة ومودة بين الطرفين وبعضها شكايات من خرق بنود ونصوص اتفاقات سابقة ، وطلب في إعادة الحق إلى نصابه ، فقد وجه السلطان إسماعيل إلى دون خايمي ملك أراغون رسالة يخبره فيها أن رسوله الذي أرسله برسالة منه يقترح عقد صلح ومودة بين الطرفين مدتها خمس سنين قد وصل وأبلغه اقتراح الملك وأن السلطان موافق على ذلك ، وأن رسالته هذه الموقعة بيده وبتوقيعه وشعاره السلطاني دليل على ذلك . وشروط الصلح ذكرها السلطان في رسالته وهي الأمان للطرفين براً وبحراً ، وحرية التجارة ، والتبادل التجاري بين الطرفين ، وتبادل الأسرى . وهناك شرط خاص بالأندلس ذكره الملك محمد الثالث وكذلك ذكره بقية ملوك غرناطة في معاهداتهم مع ملوك الإسبان ، وهو الإصرار على السماح للمدجنين المقيمين في أراضي الملك الاسباني بحرية الإنتقال إلى بلاد الإسلام ، مؤمنين على أرواحهم وأنفسهم وأهليهم وأموالهم : ومنها أن لاتمنعوا من أراد الخروج إلى أرض المسلمين المدجنين الساكنين بأرضكم بأهلهم وأولادهم ، وأن يباح لهم الوصول إلى أرضنا سالمين ، مرفوعاً عنهم الاعتراض من غير شيء يلزمهم ، إلا الغرم المعتاد على ماجرت به العادة من غير زيادة على ذلك (٢) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ٢/٢٩٤ - ٢٩٦ .

وبعضها شكاية من غارة أطلقت من طرف أحد الجانبين على الآخر ، أو طلب بإخلاء سبيل أفراد أسرهم الفريق الآخر ، قصداً أو دون قصد ، أو تعويض عن خسارة تجارة أو ماشابه ذلك . ففي إحدى هذه الرسائل يطلب السلطان محمد الرابع من الدون خايمي ملك أراغون أن يبذل جهده لإطلاق سراح عدد من المسلمين أسرهم إسبانيون تابعون لملك أراغون ، وباعوهم في مملكته : وقد وجهنا إليكم صحبة رسوليكم أربعة من النصارى من أرضكم ، فقصدنا منكم ، أيها السلطان ، أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم في سلوة ... ثم بيعوا بميورقة ، وتعملوا في ذلك مايقتضيه ، وفاءكم الصادق . ونحن قد أمرنا أن يبحث عما أخذ من أرضكم من النصارى في الصلح ، ويعمل في ذلك ماهو الواجب . ومما نعرفكم به أنه في هذه الأشهر السالفة أخذ عمر بطاره أغرد من سكان أريولة شبطياً [1] في المدور ، وأخذ بطرف الغيطة اثني عشر شخصاً من أهل المرية ، فنريد منكم ، أيها السلطان ، أن يعز عليكم هذا الحال ، وتعملوا مايعمله سلطان مثلكم ، وتوجهوا إلينا هؤلاء المسلمين ، وتأمروا رجالكم بكف الضرر عن أرضنا على المعلوم من وفائكم وحفظكم للعهد [2] .

هذا هو محتوى الغالبية العظمى من هذه الرسائل ، وهي تلقي ضوءاً ساطعاً على العلاقات الدبلوماسية بين ملوك أراغون وملوك غرناطة ، ولاتخرج بقية الرسائل عن هذا المحتوى .

وهناك سلطان من سلاطين غرناطة لابد من ذكره والتنويه بـــه ، وتخصيص حيز له ، وللوثائق الصادرة عنه . هذا السلطان هو محمد الخامس

---

(١) الشبطي هو رئيس العصابة أو الغازي على رأس مجموعة من الشجعان .

(٢) نفس المصدر ٢/٣٠٦ - ٣٠٨ .

الغني بالله ، الذي حكم بين سنتي ٧٧٥ و ٧٩٣ ، مع فترة انقطاع بين سنتي ٧٦٠ و ٧٦٣ هـ حيث جرت ضده مؤامرة خلع على إثرها عن العرش ، ثم عاد بعد ذلك ، وظل في الحكم حتى وفاته . يمتاز هذا السلطان بذكائه ونشاطه وشخصيته القوية ، ودهائه وعلاقاته السياسية مع ملوك الإسبان ، وملوك بني مرين في المغرب الأقصى ومع حكام مصر وملوكها من المماليك ، وقد منح مملكته فترة من الاستقرار النسبي ، ونبغ في كنفه الأديب والوزير المشهور لسان الدين بن الخطيب الذي كان علماً من أعلام النثر العربي وذا مدرسة خاصة هي امتداد وتطوير لمدرسة كبار الكتاب الذين نبغوا زمن الأيوبيين والمماليك أمثال القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني وابن عبد الظاهر وغيرهم . ويمتاز أسلوبه بالنفس الطويل والسجع المرصع ، واستعمال المحسنات البديعية ، واللفظية بكثرة هائلة ، ولكن ، مع ذلك ، يبقى أسلوبه رشيقاً غير ممل ، وإن تكن الأفكار تختنق تحت مثل هذا الغطاء اللفظي الهائل . وهو مؤلف غزير ، وترك عدداً كبيراً من الكتب وعاش حياة حافلة ومضطربة ، وأخيراً فقد حظوة سلطانه ، ونفى إلى المغرب الأقصى ، وهناك قتل ودفن .

هذا وإن أغلب أو كل الوثائق الموجودة عندنا من زمن السلطان الغني بالله هي من إنشاء ابن الخطيب ، وبعضها مراسيم . والأندلسيون يسمون المرسوم ظهيراً ، أصدرها السلطان لشؤون داخلية ، مثل ذلك مرسومه الذي أصدره يعين بموجبه ابنه الأمير يوسف مشيخة الغزاة في الأندلس[1] .

وتبرز في هذا المرسوم صفات ابن الخطيب ، ومميزات أسلوبه .

---

(١) المقري المصدر المذكور آنفاً . ٢/٤٩ - ٥٢ .

فالإطناب بالوصف والمبالغة المفرطة والتشابيه ، والاستعارات ، والكنايات ، والترصيع ، والسجع أشياء شائعة كل الشيوع . وإن الموضوع الرئيسي يختفي كل الاختفاء تحت ظل هذه الأشياء . فهو عندما يصف الأمير يوسف يصفه بمايلي : فهو الفرع الذي جرى فضله على أصله ، وارتسم نصره في نصله ، واشتمل حده على فضله ، وشهدت ألسن خلاله برفعة جلاله ، وظهرت دلائل سعادته ، في بدء كل أمر وإعادته ، لما صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب المجد البعيد المدى وتوشيحه ، بالصبر والحلم والبأس والندى [1] ...

ولاتخرج بقية مراسيمه عن هذا المضمار .

ولقد أرسل السلطان الغني بالله رسالتين : الأولى إلى السلطان المملوكي الملك المنصور محمد بن حاجي الأول بن محمد الناصر بن قلاوون ، والثانية إلى أمير مملوكي هو الأمير يلبغا الخاصكي . وإن الألقاب التي يطلقها ابن الخطيب على السلطان المملوكي تملأ صفحة كاملة ، ولوصدق لقب واحد منها لجعله أعظم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولكنها ألقاب لاتسمن ولاتغني من جوع . وقد أخطأ ابن الخطيب باسم السلطان فأسماه بإسم أحمد ، على أن الصواب ما أثبتناه أعلى . والغاية من الرسالة هي شرح أوضاع الأندلس ، وكيف أنها تحارب حرباً لاهوادة بها ضد عدو يفوقها أضعافاً كثيرة ، وأن لاناصر لها إلا الله ، ويتطرق ابن الخطيب في رسالة سلطانه هذه إلى التاريخ الأندلسي من أوله حتى زمانه هو ، ويذكر شيئاً من الحروب التي دارت بين سلطانه وبين الاسبان ، وكيف أن الحرب كانت سجالاً بين الطرفين ثم انتصر المسلمون .

---

(١) نفس المصدر .

ويختم رسالته هذه بأن هذه الرسالة هي تجديد لعلاقات مودة كانت قائمة بين جد السلطان الغرناطي ووالد السلطان المملوكي ، ويأمل أن تتجدد العلاقات وتتطور [1] .

ولايخرج مضمون رسالته إلى يلبغا الخاصكي عن مضمون الرسالة السابقة وفي إحدى رسائله ، يخبر الغني بالله أحد رؤساء تونس بمحاولة خلعه عن العرش ، تلك المحاولة التي قام بها أخوه ، وتمكن من خلعه ، والحلول محله فترة ثلاث سنوات ثم استعاد الغني عرشه بمساعدة آل مرين وقضى على المتآمرين ، واسمعه يقول : وربما اتصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذياً . . . متيمم حجرها الكافل ، ورضيع درها الحافل ، الشقي الخاصر الخائن الغادر ، محمد بن إسماعيل المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية عنا حيل مكره لخمول قدره ... [2] ثم يذكر له كيف فاجأه أخوه في الليل وكيف هرب إلى مراكش ، ومن هناك جمع جموعه ، وعاد ظافراً إلى دار ملكه وأن عودته كانت برداً وسلاماً على الأندلس ، وإنقاذاً لها من الدمار : فلولا أن الله عز وجل تدارك جزيرة الأندلس بركابنا ، وعاجل أوارها بانسكابنا لكانت القاضية ... [3]

ولاتختلف رسائله إلى سلطان بني مرين عن تلك التي وجهها إلى الآخرين ، علماً أن بني مرين لهم مكانة خاصة لدى سلاطين غرناطة لإمدادهم الدائم لهم بالمال والرجال والعتاد ،

ولقد وجدت علاقات ود وصداقه أيضاً بين بنى مرين في مراكش ، وبين

---

(١) نفس المصدر ١/٣٠٠ - ٣٠٥ .

(٢) نفس المصدر ٩/٣٦ - ٤١ .

(٣) نفس المصدر .

حكام مصر من المماليك ، وقد سبق للسلطان المريني أبي الحسن أن تبادل الرسائل مع السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وقد استمرت هذه العلاقة زمن ابنه السلطان إسماعيل ، فقد أرسل السلطان المريني رسالة إلى السلطان المملوكي كال لنفسه ولنظيره المملوكي الألقاب الفارغة ، وحدثه عن والده وعن الصداقة التي كانت بينهما ، وكيف أنه أرسل وفداً مغربياً إلى الحج عن طريق مصر ، ومع الوفد مصحفان خطتها يد السلطان المغربي ، وكيف أن السلطان الناصر أحسن استقبال الوفد ، وسهل طريقه ، وحاطه بالرعاية والحماية ، والاكرام ، والانعام ، وسمح لأعضاء الوفد بشراء أوقاف في المدينة المنورة من أجل رعاية المصحفين ، وكيف أن ذلك وقع من السلطان المغربي أحسن موقع وأجمله ، ثم ينتقل السلطان المغربي إلى تعزية السلطان إسماعيل بوفاة والده وتهنئته بالملك الذي ورثه عن والده . مع أجمل التهاني وأعذب الأمنيات . بعد ذلك يطلب إليه أن يسهل طريق موفده إليه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ولتفقد أحوال الأوقاف التي تم شراؤها زمن أبيه الناصر .

هذا ، وإن من أشق الأمور على النفس الانسانية ، أن تتحدث بصراحة وصدق عن معركة خاضتها ضد خصم شرس وهزمت فيها . وهذا ما فعله هذا السلطان العظيم المجاهد ، إذ أنه اعترف بخسارته المروعة أمام الاسبان براً وبحراً . ذلك أن ملك قشتالة جمع قواته ، وأمدته أوربا كلها ، وهاجم مملكة غرناطة ، وكان قصده قطع اتصالها مع المغرب ، وقد تم له ذلك وهزم القوات الاسلامية في معركة طريف هزيمة منكرة ، وخسر الأسطول المغربي سبعاً وستين قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر [1] . كذلك أرسل جيشاً

---

(١) نفس المصدر ٦/١٢٠ - ١٢٩ .

ضخماً للأندلس ، ولكن هـــذا الجيش حوصر في الجزيرة الخضراء بعد هزيمـــة الأسطول . غير أن السلطان المغربي تمكن من استعادة جبل طارق من القشتاليين ، وبذلك أمن نقطة اتصال مع الأندلس ، وقد : كتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فاذنا له فيه الاذن العام ... (١) هنالك دعى النصارى إلى السلم فاستجابوا ... فتم الصلح إلى عشر سنين ، وخرج من بها [الجزيرة الخضراء] من الفرسان ورجال وأهل وبنين ، ولم يرزؤا مالا ولا عدة ، ولالقوا في خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة (٢) .

رحم الله السلطان أبا الحسن المريني ، فقد كان ، إلى جانب جهاده العظيم ، وتقواه ، وبلائه في نصرة الأندلس ، عظيماً في تواضعه ، عالياً في هزيمته صادقاً مع نفسه ومع من حوله فاستحق ثناءنا وثناء كل من يفتقدون هذه الصفات لدى هؤلاء الحكام في هذه الأيام .

ولقد رد السلطان إسماعيل بن الناصر التحية بأحسن منها ، وأجاب برسالة محكمة مدبجة رد فيها على كل ماورد في رسالة السلطان المغربي ، وتقبل عزاءه في والده وشكره لتهانيه القلبية على تسنمه عرش المملكة ، وأخبره أن الود الذي كان قائماً بين السلطان المغربي ووالد السلطان إسماعيل سيستمر وسيزداد قوة في عهد ولده إسماعيل ، وأنه استقبل الوفد ، وقد سهل مهمته وطريقه ، ثم أبدى أسفه لما حل بالسلطان من هزيمة وما أصابه من خسائر ، وتمنى لو أمكن النجدة لفعل ثم يذكر له أن أجر ذلك مدخر له عند

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

الله تعالى[1] .

نصل الآن إلى نهاية القصة ، وهي نهاية محزنة مؤلمة لقصة مجيدة ، تقص علينا كيف انتهى ذلك المجد العظيم ، وكيف هوى ذلك الصرح الباذخ من صروح الاسلام المجيدة . فقد توحدت مملكتا أراغون وقشتالة تحت عرشي فرناند وإزابيلا ، وضعف ملوك بني مرين كل الضعف ، وحل محلهم آل وطاس ، كما وأن قوى الأندلس استنزفت في هذا الصراع الطويل الدامي المنهك غير المتكافىء ، ومزقتها الفتن والحروب والدسائس والصراع على العرش فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله الصغير أن يطلب السلم من المنتصرين الذين قطعوا كل اتصال للأندلس من كل الجهات ، وحاصروا غرناطة حصاراً لايمكن فكه إلا بالاستسلام . وقد تم ذلك ووقعت وثيقة الاستسلام في الحادي والعشرين من محرم سنة ٨٩٧ هـ الموافق ١٤٩١/١١/٢٥ م .

وقد أخذ أهل غرناطة لأنفسهم من المواثيق والعهود أشدها وما اعتقدوا أنه يحميهم ويحمي أعراضهم وأرواحهم وأنفسهم وأولادهم وأموالهم وعقيدتهم من الاضطهاد ، ولكن كل ذلك كان سدى ، إذ أن المنتصرين نقضوا عرى هذا الاتفاق عروة عروة . ومتى كانت أوربا ترعى ذمة أو تحفظ عهداً بل العكس تماماً هو الصحيح ، ولكن المغلوب العاجز لاحيلة له سوى الركون إلى مثل هذه الأمور ، لأنه إن لم يفعل ذلك تطور الوضع إلى أسوأ .

فقد نصت معاهدة التسليم على أن تسلم قلاع الحمراء والحصن وأبواب غرناطة والبيازين إلى الملكين الإسبانيين خلال ستين يوماً من تاريخ توقيع الاتفاق ، وأن يقدموا رهائن من علية أهل غرناطة ضماناً لحسن تنفيذ هذا الاتفاق . ويتعهد الملكان الإسبانيان ومن سيأتي بعدهما من الحكام الآن والى الأبد أن يتركوا الشعب الأندلسي يحكم بموجب شريعته ، وأن تترك لهم

---

(١) نفس المصدر ٦/١٢٩-١٣٥ .

مساجدهم ، وأن تترك لهذه المساجد أوقافها . كما وأن الملكين يسمحان لمن يريد العبور إلى المغرب أن يعبر بأمواله وأهله ، ويمنحهم الملكان الحماية والرعاية حتى يصلوا إلى مأمنهم ؛ وأن يعامل الجميع على أساس أنهم رعايا خاضعون لملك إسبانيا ، وأن لايلزموا بوضع شارة تميزهم عن غيرهم ، وألا يجبروا على التنصر ، وأن يحكم بينهم حكام وقضاة مسلمون بموجب الشريعة الإسلامية . هذه هي أهم بنود الاتفاق ، وقد ذيل الاتفاق بتعهد خطي من ملك وملكة إسبانيا ووقع عليه ولي العهد والعظماء ، يؤكد بموجبه الملكان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي القيام والوفاء بكل مايحويه هذا العهد من نصوص... الآن وإلى الأبد[1] .

كما وأن هذا العهد ذيل بذيل يضمن بموجبه الملكان حقوق وامتيازات أبي عبد الله الصغير وحقوق نسوته وأولاده وأمه ، ويضمنان مايملكونه الآن والى الأبد ، مع الاعفاء من الضرائب ، ولهم حق بيعها وهبتها والتصرف بها وتوريثها لأعقابهم من بعدهم ، وإذا أحب الملك أبو عبد الله ونسوته وأمه العبور الى المغرب فلهم ذلك ، ولهم الحق في الاحتفاظ بأملاكهم أو بيعها[2] .

ولقد ظن أبو عبد الله الصغير أنه يستطيع البقاء في الأندلس بعد سقوطها بيد الاسبان وبعد أن أصبح تابعاً بعد أن كان متبوعاً ولكنه كان واهماً وبدأت المضايقات ، كذلك وأصبح وجوده مصدر ازعاج للملكين الكاثوليكيين ، وأخيراً تفاوض الطرفان وتقرر أن يتنازل ابو عبد الله الصغير عن كل حقوقه وامتيازاته وأملاكه للملكين لقاء مبلغ من المال دفع اليه[3] ، وانتقل الى

---

(١) عنان ، محمد عبد الله . نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . الطبعة الثالثة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٦ م . ص ٢٤٥ – ٢٥٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٧٧ .

المغرب مع أسرته ، مسجلاً بذلك انتهاء عهد من أمجد عهود الحضارة الاسلامية ومفتتحاً عهداً من أسوأ عهود التاريخ الاسباني الأسود المتعصب هو عهد اضطهاد الموريسكيين الذين ظلوا في صراع مستميت مع حكام اسبانيا ومع الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة في إسبانيا مدة تنوف على القرن حتى أخرجهم الاسبان من الأندلس جملة واحدة في مفتتح القرن السابع عشر .

ز ـ المدجنون والموريسكيون

المدجنون : لفظ أطلق على المسلمين الذين بقوا في بلاد الأندلس التي احتلها الاسبان وحافظوا على دينهم وعاداتهم فيها ، وذلك في جميع الأمكنة التي احتلها الاسبان قبل سقوط غرناطة بيدهم . أما الموريسكيون : فلفظ أطلق على المسلمين الذين بقوا في مملكة غرناطة بخاصة وظلوا متمسكين بدينهم وعاداتهم على الرغم من الاضطهاد الرهيب الذي تعرضوا له .

ولقد اكتشف عدد كبير من الوثائق المدجنية المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية بمدريد ، وأغلبها عقود تمت بين المستعربين أو بينهم وبين المدجنين بأسلوب عربي لا بأس به ، وكلها تستهل بالبسملة ، مقرونة أحياناً بعبارة « وبه تستعين » أو « الحمد لله وحده » وعلى كثير منها شهود مدجنون مسلمون إلى جانب النصارى .

ولقد ترك الموريسكيون لمصيرهم الفاجع ، ولم يستطيع أحد أن يقدم لهم عوناً لقوة اسبانيا المسيحية آنذاك وضعف الدول الاسلامية المجاورة لها . ولم يستطع العثمانيون ، القوة الاسلامية الوحيدة الموجودة آنذاك في البحر المتوسط ، باستثناء المماليك المنحدرين نحو التحلل والانهيار ، أن تعمل شيئاً لانقاذ هذا الشعب التعس أو تخفيف آلامه . وقد تمكن أحد فقهاء مراكش أن يسرب إلى الموريسكيين ، ويسميهم الغرباء ، رسالة يبين لهم الطرق الشرعية

التي يمكن أن يلجأوا إليها حتى يتمكنوا من ممارسة شعائر الاسلام خفية : فالصلاة ولو بالايماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم . . . والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور [1] . . . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر ، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالايمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك . . . [2]

وهناك قصيدة موريسكية قالها شاعر مسلم اسمه محمد بن محمد يصف آلام شعبه التي تذيب الصخر ويصور الاضطهاد الذي يصب عليهم ، أروع تصوير وأبشعه : . . . ومن عبد الله بلغته قضي عليه بالهلاك ، ومن ضبط ألقي في السجن ، وعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم [3] . ثم يختم قصيدته بما يلي : ونحن إذ نيأس من عدل الانسان نستغيث بالنبي معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله فهو الذي يرحمنا في نهاية الأمر [4] .

رحم الله هؤلاء الأبطال المجهولين الذين ضحوا بحياتهم وتحملوا أقسى ما يتحمله انسان في سبيل عقيدته ، وقد سجل هؤلاء الأبطال أنهم مشاعل تنير الطريق أمام الأجيال الصاعدة تعلمها كيف يكون الثبات على العقيدة وكيف تكون التضحية في سبيل المبدأ . وفي نفس الوقت دمغ هذا العمل إسبانيا بالوحشية والفظاظة والعداء للجنس البشري الذي كلف كثيراً من البشر أرواحهم وكان نقمة على الملايين من بني الانسان ، وأثبت أنه كان أكبر نقمة أصيبت بها إسبانيا المسيحية المتعصبة نفسها

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٢ - ٣٤٤ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .
(٤) نفس المصدر .